المقدمة

يبقى في تاريخ الخزر والخاقانية الخزرية الكثير من الثغرات والمراحل الغامضة. فنحن لا نعرف بالضبط من كان هؤلاء الخزر، ومن أين ظهروا، وما نمط الحياة الذي عاشوه، ولا أين عاشوا؟

فالمصادر التاريخية تنزلهم في منطقة الفولغا السفلى، والآثاريون حتى وقت ليس ببعيد لم يعرفوا أثراً خزرياً واحداً في أسافل مجرى هذا النهر. إذ إن هذا الظرف وحده يعيق أيّ جهود للكشف عن آثار هذا الشعب الغامض.

وبحكم ذلك ساعدت بنشاط لتنظيم بعثة ل. ن. غوميليوف في دلتا الفولغا والتيريك بهدف استقصاء القضية الخزرية على الأرض - فهناك تقرر المصادر وجود الخزر. والمهمة الرئيسة القائمة أمام البعثات هي اكتشاف آثار المدن الخزرية الكبيرة المشهورة إيتيل وسيمندير على الرغم من فناء الأولى دون أن يبقى لها أي أثر في أمواج الفولغا، ومنذ زمن بعيد لم يكن احتمال وجودها يتعدى التخمين ليس أكثر.

وأما الثانية فاعتبرت موجودة لا على التيريك بل على التلال السفحية الجنوبية من داغستان.

ماذا أعطت بعثات ل. ن. غوميليوف؟ هل توصلت إلى حل المهمة الملقاة على عاتقها؟ فإن ل. ن. غوميليوف كأسلافه لم يكتشف إيتيل في المكان الأكثر احتمالاً لوجودها. ولكن بدلاً من ذلك فسر في المرة الأولى وباقتناع كامل، بأي شكل يمكن أن تباد فيه هذه المدينة وبما أن آثار إيتيل على الضفاف القديمة للفولغا غير موجودة فإنها يمكن أن تكون موجودة فقط في وادي هذا النهر الذي كان في وقت الخزر لا يشبه ما هو عليه في الوقت الحالي. لأن التغيرات الجذرية فيه كانت مرتبطة بالطغيان العظيم لبحر قزوين في القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين لما كان الوادي مغموراً بالمياه ومملوءاً بالطمي محولاً مظهره ومخفياً تقريباً كل آثار السكان السابقين بما فيها آثار إيتيل، وفقط على تلك المسماة تلال بائيرو في أسافل الدلتا والتي لم تغمر أبداً بالمياه سلم القليل من آثار المرحلة الخزرية التي تبرهن على أن وادي النهر كان مسكوناً فعلاً في ذلك الوقت.

إن اكتشاف هذه الآثار واستقصاءها كون شكل المأثرة الكبيرة لـ «ل. ن. غوميليوف» تجاه العلم، ولكن أهمية استقصاءاته لا نجدها بالملاحظات الكثيرة التي استفيد منها في مشاورات الاختصاصيين - البيولوجيين والجيولوجيين.

فقد نجح ل. ن غوميليوف الذي طاف الدلتا بالسيارة والقارب في إعادة إنشاء هيئتها كما كانت في الزمن الخزري وحدد حجمها وصاغ التصور حول استثمارها الاقتصادي المحتمل في ذلك الوقت ومن ثم أدى مباشرة إلى فهم اقتصاد ونمط حياة الخزر.

وبقي أن يحدد التاريخ الدقيق لسكن الخزر في دلتا الفولغا عملهم صيادي أسماك ومزارعين وبأيّ طريقة صوروا كتاب الملك يوسف؟ فالآثار المتوفرة لا تعطي جواباً بحق هذا السؤال.

وبصدد حل هذه المسألة نشأ موضوع كبير جداً ومهم عن تأرجح مستوى بحر قزوين وإلى جانب هذا عن نظام التبدلات المناخية التي انعكست على نظام الأنهار التي تغذيه. فهذا السؤال يقلق العلم منذ زمن طويل. وفي وقتنا الحالي صار الهبوط المستمر لمستوى بحر قزوين مسألة حيوية مهمة للغاية فهناك عدة فرضيات توضح هذه الظاهرة واختار ل. ن غوميليوف واحدة منها وهي الفرضية الأكثر احتمالاً عن التبدلات الدورية لاتجاهات الأعاصير الأطلسية الحاملة للمياه والتي تتوقف عليها نسبة الهطولات القصوى للأمطار حيث تقع فإذا سقطت على السهوب فإن السهوب التي تتلقى مياهاً كثيرة تتغطى بالنباتات الكثيفة التي تقدم أعلافاً وفيرة لأعداد كبيرة من القطعان وطبقاً لذلك يزدهر الاقتصاد الرحلي ويتزايد عدد السكان وينشأ اتحاد سياسي قوي بين السهبيين.

ولكن مقابل هذا فإن بحر قزوين الذي تغذيه الأنهار التي يقع خزان مياهها في منطقة الحراج المتوسطة يضمحل بشكل كارثي مثل الأنهار التي تصب فيه من هناك وبالدرجة الأولى نهر الفولغا.

وفي الوقت نفسه عندما تنتقل الأعاصير إلى الشمال حيث أحواض أنهار بحر قزوين ومنها تتلقى الاحتياطات الأساسية للمياه، يرتفع مستوى البحر قليلاً أو كثيراً ولكن السهوب المتاخمة له تحترق وتفنى من الجفاف وتتغطى بالرمال وتقل كمية الأعلاف للقطعان ويبحث السكان عن أماكن جديدة للاستيطان ومقومات العيش الأخرى. وتضمحل تدريجياً وتتفتت إمبراطورية الرحل وتفنى.

وأشرك ل. ن غوميليوف المعطيات التاريخية التي تحيط بأوروبا الشرقية وسيبيريا مع دول آسيا المجاورة لها التي تؤكد صحة الظاهرة المشار إليها وفتش عن معطيات جديدة لتدقيق الترتيب الزمني للتبدلات المناخية.

ولهذا الغرض كان قد أعد دراسة تحت مائية لآثار سور دربنت في قاع البحر. ويتحدث كتَّاب القرن العاشر العرب عن التاريخ العجيب لبناء الفرس سوراً حجرياً يمتد في البحر ولكنهم لم يحزروا أن هذا السور كان مبنياً على اليابسة عندما كان مستوى بحر قزوين أخفض بكثير عما هو في زمنهم.

وكانت مهمة الدراسة التحت مائية هي تحديد مستوى بحر قزوين في القرن السادس الميلادي عندما بني السور الدربنتي وهذا العمل أنجزه ل. ن غوميليوف

وزملاؤه بغض النظر عن الخطورة المرافقة لغوص الضفادع البشرية في البحر العاصف ولطف الله بالباحثين الشجعان - وكان كل ما فقدوه هو غرق رجل ضفادع بشرية واحد.

ويدل السور الدربنتي بكل وضوح على أن مستوى بحر قزوين في القرن السادس الميلادي كان أخفض بكثير عما هو عليه الآن بل عن مستوى القرن العاشر الميلادي عندما كان قسم السور الساحلي كما هو الآن موجوداً في الماء ووفقاً لذلك امتد إلى أبعد في البحر وكانت دلتا الفولغا اليابسة موجودة. إلا أنه ليست لدينا المعطيات عما إذا كانت مسكونة في الوقت نفسه بالخزر. واستطاع الخزر أن يستوعبوها في وقت متأخر جداً عندما أخذ مستوى البحر يرتفع من جديد. ووفقاً لذلك أخذت السهوب المجاورة للفولغا بالجفاف وتعطي متسعاً أقل لتطور اقتصاد تربية المواشي لدى البدو (الرحل).

وانهار نشوء التحضر والزراعة على نهر الدون والسهوب الشمالية الواقعة ما بين نهري الدونيتس والدون الأوسط في القرن الثامن الميلادي (بسبب تملح التربة) وإلى ذلك التاريخ أو أبكر قليلاً يمكن أن يعود استيطان وادي الفولغا ونشوء السبب نفسه - زحف القحط وتدهورت السهوب.

ووصلت مياه القزوين في القرن العاشر الميلادي للمستوى الحالي تقريباً وتدنى مستوى إروائه إلى الحد الأقصى كما قلنا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين عندما اكتست آثار الحضارة الخزرية في وادي الفولغا بالمياه والرواسب المحمولة.

وكذلك لم يكن التنقيب في نهر التيريك بلا فائدة فالتعرف القريب على هذا النهر أدى إلى تدقيق الموضع المحتمل لـ سيمندير وهو ليس منطقة مدينة كيزيليار وإنما أرض واقعة إلى أعلى بكثير منها على النهر ومن الأطلال المفحوصة هنا يمكن أن تكون واحدة منها من حيث تصميمها مدينة سيمندير الخزرية، إلا أن البحوث الاختصاصية التالية في المكان يمكن أن تؤكد أو تفند هذه الفرضية.

إن كتاب ل. ن غوميليوف يعرف القارئ بالكامل على الأسئلة المتعددة المتعلقة بتاريخ وطبيعة واستيطان البلاد الروسية ويميط المؤلف اللثام عن ظاهرة العقدة الخزرية سواء في الأزمنة المبكرة أو في الأزمنة المتأخرة في الاتساع الهائل من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسي، ويوضح في الكتاب سنّة العملية التاريخية والتغيرات الحقيقية للطبيعة ويبين الدور المهم للعامل الطبيعي في حياة البشر.

ومع ذلك ليس فيه أي شيء مماثل لنشوء نظرية الحتمية الجغرافية المادية المبتذلة. فالوسط الجغرافي والتغير في الطبيعة لا يمكن أن يكونا على حد سواء بالنسبة للناس، فعليهما يتوقف الكثير فهما يسهلان أو يعيقان التطور الثقافي والاجتماعي. ولكن المجتمع يعيش ويتطور بقوانينه الداخلية بغض النظر عن الطبيعة والتغيرات التي تحصل فيه وليس مرجعها إلى تأثيرات الوسط الطبيعي.

وكتاب ل. ن غوميليوف مكتوب بشكل شيق، فهو ليس تقريراً شكلياً عن العمل الذي قام به وليس عرضاً جافاً للنتائج المحققة، وبالرغم من أنه محافظ على العلمية بدقة فهو غير معد للاختصاصي ومفهوم من قبل أي قارئ ذي اطلاع تاريخي أولي، ومن الصعب تحديد أي فن من الفنون ينتمي إليه كتاب ل. ن غوميليوف. فهو شخصياً يسميه سيرة حياة فكرة علمية. ولكن هذا هو أيضاً سيرة حياة ذاتية لأن الفكرة لا تنفصل عن مؤلفها وتنقياته التي بنتيجتها تبلورت وصارت كياناً مستقلاً.

وعلى كل حال، هذا كتاب ممتع لكل من يقرؤه حيث تجتذبه رومانسية البحث الصعب أينما جرى على الأرض أو في المكتب الذي يحب أن يتتبع كيف حدث الاكتشاف، فأنا (أي البروفسور ارتامونوف - المترجم) انسب كتاب ل. ن غوميليوف إلى الأدب البوليسي إذا كان هذا الأدب غير محصور بالكتابة عن اكتشاف الجريمة وإنما يتحدث بالشكل الفني عن حلول المسائل العلمية، مع أنه تظهر في أدبنا الروسي والآداب الأجنبية بين الفينة والأخرى كتب تحتوي على تاريخ ممتع عن التنقيبات فإن هذا النوع من التحريات التي تحمل الفائدة القصوى يمكن أن يخفق بنجاح فوق المادة الأثرية وإليها ينتمي ويلفت انتباه القراء لكتاب ل. ن غوميليوف.

البروفسور م. إ. ارتامونوف
٣ أيلول ١٩٦٥م

obeikandl.com

أطلنتس الخزرية

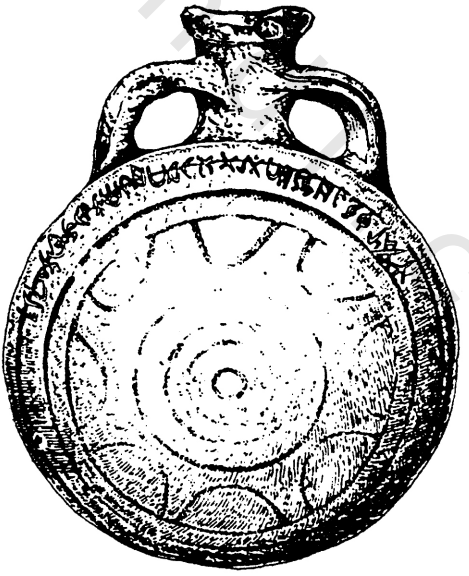

obeikandl.com

«الخزريون كجميع الناس الآخرين، أكلوا وشربوا، وبالطبع كسروا أواني، ولكن أين الفخار وهو المادة التي اعتبرت دائماً اللقى الأولى لعلماء الآثار؟

كان للخزر مدينتان ضخمتان: إيتيل على الفولغا وسيمندير على التيريك فأين آثارهما؟

الخزريون توالدوا - فمع من امتزجوا؟

وأخيراً - أين توضعت مستوطنات الخزر تلك «القرى والحقول ذاتها» التي حكمها أوليغ أمير كييف بحسب أقوال أ. س. بوشكين «حكمها بالسيوف والحرائق» هذا ما بقي مجهولاً منذ زمن طويل».

أطلنتس الخزرية

حلم عالم العلوم الطبيعية الروسي العظيم كارل بير «ببناء جسور بين العلوم» قاصداً بذلك تعاون المواد العلمية البعيدة عن بعضها بعضاً، التي كما تنبأ يجب أن تغني بتعاونها وتعطي نتائج علمية وعملية كبيرة. فبالمقياس الذي يقاس فيه ذلك التعاون يظهر بحثنا المشترك - أعمال الجيولوجي الذي يبحث عن النفط والغاز وعالم الآثار الذي يدرس الآثار القديمة.

فالجيولوجي يجعل هدفه الحصول على المعطيات عن التطورات الجيولوجية في أسافل مجرى نهر الفولغا وتأريخها بدقة لكي يحدد المناطق الأكثر ملاءمة لتنظيم البحث عن النفط والغاز فيها.

ولا تستطيع وسائط العلم الجيولوجي حل هذه المسألة وهنا يأتي المؤرخ لمساعدة الجيولوجي. الذي بواسطة اللقى الأثرية يمكن أن يحدد عمر هذه أو تلك من الطبقات. والجيولوجي بدوره يساعد عالم الآثار على إدراك الظروف الفيزيائية - الجغرافية للمنطقة المدروسة في القديم وإعادة تكوين صورة الماضي.

وعلى أساس تلك المبادئ بنينا عملنا الحقلي في السنوات ١٩٥٩-١٩٦١م وبنتيجته توصلنا إلى حل لغز المدينة الخزرية في أسافل مجرى نهر الفولغا.

وحتى تاريخه بغض النظر عن التنقيبات المطولة لم يعثر ولا على قبر واحد ولا على قطعة خزف واحدة يمكن أن تعزى بثقة إلى الخزريين. وحتى مكان توضع عاصمة خازاريا - مدينة إيتيل - نفسه لم يكن من الممكن تحديده بالرغم من وجود أوصاف تفصيلية تركها الجغرافيون العرب القدامى بين أيدي العلماء.

وسمحت حسابات الطرق منذ عهد خان الخزر المترحل التي قام بها البروفسور م. إ. ارتامونوف بافتراض أن إيتيل كانت بالقرب من إينوتايفكا على الضفة اليمنى لنهر الفولغا أو عند قرية سِليترِنويي على الضفة اليسرى إلا أن الضفاف العليا الجافة المفحوصة دلت على أنه لا وجود لآثار المدينة هناك حتى العهد المغولي.

وعندما نقلت التنقيبات إلى حوض الفولغا - الآختوبيني التي لم يُعِرْ علماء الآثار الانتباه إليها حتى الآن فهناك في مصب نهر مانغوت رافد نهر آختوب اكتشفت قطع من الفخار منذ الزمن الخزري مغطاة برواسب نهرية أكثر تأخراً. وهكذا برهنت اللقية الأولى على أن التنقيبات الأثرية قد سارت حتى الآن بالطريق الخاطئ، وعلى أن الخزر عاشوا في تلك الأماكن التي تغمر في وقتنا الحاضر بمياه الفيضانات الربيعية. وهذا يعني أنه منذ ألف عام كانت الفيضانات الربيعية للفولغا أقل منها الآن - وكما يبدو أن الفولغا كان أقل غزارة بالمياه - ومن ثم كان مستوى بحر قزوين أخفض، وتؤكد مراجعة هذا الاستنتاج صحته وهو واحد من البراهين على ذلك.

وفي الستينيات من القرن السادس الميلادي بنى الشاه الفارسي كسرى أنو شروان السور الدربنتي بين الجبال والبحر لكي يعترض طريق الرحل الشماليين إلى إيران ووصلت النهاية الغربية للسور إلى الصخور المنيعة لجبال القوقاز وأما الشرقية فبحسب أقوال الجغرافيين العرب فقد بدأت من البحر الذي وصل عمقه عند حافتها إلى ٢-١.٥م وحجارة الأساس كما كتب العرب حملت على أرماث (أطواف) من القرب وألقيت في البحر. وبإنزال رجال الضفادع البشرية إلى قاع البحر رأينا أن شهادة الجغرافيين العرب لم تكن دقيقة تماماً فالسور تكون من كتل صخرية هائلة متراصة لا تستطيع القرب تحمل أوزانها. وتلك الكتل نفذت مباشرة على أساس صخري طبيعي بشكل يمكن تنفيذه فقط على أماكن ضحلة ولكن الأهم هو أن - نهاية السور والبرج المستدير الذي تنتهي به موجودان الآن على عمق ٥.٥م وبعبارة

أخرى عند المنسوب المطلق ناقص ٣٣.٥م يعني أن مستوى بحر قزوين في القرن السادس الميلادي كان عند منسوب مطلق أعلى من ناقص ٣٢م وهذه المعطيات الصحيحة تماماً سمحت لنا بإعادة تكوين خريطة خازاريا القديمة. واتضح أن دلتا الفولغا امتدت إلى أبعد بكثير إلى الجنوب ومنطقة سكن الخزر كانت أكبر من الأراضي المنخفضة (نيدرلاند - هولندا).

وتمايزت خازاريا بصورة حادة من حيث المنظر الطبيعي الأرضي والمناخ المحلي عن السهوب الجافة المحيطة بها وكذلك بالمراعي الخضراء وجريان الأنهار السطحية (غير العميقة) المطوقة بالصفصاف والقصب والمجاري والقنوات المملوءة بالأسماك والطيور. وعملت المروج المغمورة بالمياه مراعي ممتازة للقطعان ونضج في دلتا الفولغا البطيخ الريان وأنواع العنب الممتازة كما في الوقت الحاضر وكل شيء ساعد على البستنة والزراعة.

هكذا وصف بلاده الملك الخزري يوسف في القرن العاشر الميلادي «بلادنا خصبة فيها كثير جداً من الحقول والمراعي... التي بلا عدد وجميعها تروى من أنهارنا ومن الأنهار تنبت النباتات». والآن خلافاً للرأي الشائع يجب الاعتراف أن الخزر لم يكونوا رحلاً - لقد فتحت الطبيعة والدلتا إمكانية واسعة للحياة الحضرية دون استثناء أن الخزر مارسوا تربية المواشي الطليقة (بالرعي) إلا أن المناطق الأساسية للرحل وهي - السهوب المحيطة بخازاريا - كانت مأهولة بشعوب غير خزرية. وبالبحث الواسع الذي قمنا به في عام ١٩٦٠م دل على اكتشاف قطع من الفخار من القرن السابع إلى العاشر الميلادي في كل مكان من سهوب الكالميك في الغرب إلى رمال - الرين في الشرق. ولم يكن هذا الفخار المصنوع بشكل بدائي والمشوي جيداً فخاراً خزرياً.

فما الذي أعاق اكتشاف آثار هذه الحضارة الغنية المتعددة الجوانب باكراً ولماذا اختفت فجأة دون أثر؟ من الواضح أن أسباب ذلك كانت التبدلات المناخية التي خلفت وراءها ترطب سهول أوروبا الشرقية في النصف الثاني

من القرن الثالث عشر الميلادي، وصار الفولغا أغزر مياهاً، وأخذ بحر قزوين يزداد ارتفاعاً ولوحظ ارتفاع مستواه على الشواطئ الجنوبية: في نهاية القرن الثالث عشر ميلادي ابتلع البحر ما يسمى «كرفان - ساراي» في باكو والميناء الفارسي أبي ورد في عام ١٣٠٤م وحول ذلك كتب جغرافي القرن الرابع عشر الإيطالي مارينو سانوتو «ارتفع بحر قزوين من سنة لسنة وغمر كثيراً من المدن الجميلة».

وارتفع بحر قزوين ١٢م عن المنسوب المطلق ناقص ٢٠م وغمرت الدلتا جزئياً، وتحول جزء آخر منها إلى أجمات لا تجتاز من القصب وصارت تحت المياه تقريباً كل الأراضي التي قامت عليها القرى والمزارع الخزرية. وإلى الشمال من حوض الفولغا دمرت الفيضانات الربيعية المتزايدة كل آثار القرى الخزرية وأصاب خازاريا قدر أطلنتس الخرافية. وشعبها الذي حرم من وطنه تشتت إلى خليط إثنوسي من أقوام القبيلة الذهبية الرحل.

وهكذا من خلال أعمالنا المشتركة نجحنا في رفع الستار عن سر اختفاء خازاريا. وإلى جانب ذلك أعطى هذا العمل لكل منا كثيراً من المعطيات الجديدة: - لعالم الآثار عن التاريخ الماضي لمناطق أسافل نهر الفولغا - وللجيولوجي عن الإمكانات الجديدة لاستكشاف النفط والغاز في هذه المنطقة.

obeikandi.com

obeikandi.com

خازاريا و قزوين
(أرضاً وإثنوساً: ١)

إن المهمة التي شرحها معروض هنا، كان قد طرحها العالم الجغرافي التاريخي م. إ. ارتامونوف في كتابه «تاريخ الخزر» مشيراً بقوله «لم يحدد حتى الآن بالضبط موقع المدن الخزرية الرئيسية إيتيل وسيمندير وغير معروفة آثارهما المادية. ولم تكتشف ليس فقط قبور خانات الخزر بل إن المقابر الخزرية نفسها غير معروفة عموماً». وبعبارة أخرى لم تكتشف حتى الآن المنطقة التي عاش عليها الشعب الخزري مع أن حدود الخاقانية الخزرية كانت معروفة بدقة إلى حد ما، وأشار م. إ. ارتامونوف إلى التنقيبات الأثرية في الفولغا الأسفل فقط التي «تلقي الضوء على الأسئلة التي بقيت غير موضحة في المصادر المكتوبة». وفي الواقع كشفت أعمال البعثات الأثرية الاستراخانية لمتحف الأرميتاج الوطني في الأعوام ١٩٦٠-١٩٦٣م ليس فقط المقابر الخزرية مع الموجودات الوفيرة فيها والقلاع والآثار الفنية وبقايا القرى، وإنما رسمت خريطة انتشار الخزر في القرون ٦-١٠ الميلادية.

إلا أن مسألة إثنوجينيز[1] الخزر ومساحة انتشاره اصطدمت بالصعوبات التي بدا علم التاريخ عاجزاً أمامها، أعطى إشراك الباليوغرافيا (علم الكتابة القديمة) فقط إمكانية حل المسألة الخزرية، وسمحت اللقى الأثرية بدورها بتدقيق الترتيب الزمني لتغير المنسوب المطلق لبحر قزوين وتشكل مجاري دلتا الفولغا.

وبهذا الشكل تسنى الوصول إلى التمازج العضوي للجغرافيا التاريخية وعلم الكتابة القديمة وعلم الآثار.

ويدل تاريخ الشعب الخزري الذي وجد على أن الخزر كانوا كثيرين وأغنياء وكانت أعمالهم الرئيسية هي الزراعة وصيد الأسماك ومارسوا تربية الماشية الطليقة (السرح) أما الكروم والبساتين فكانت جزءاً لا يتجزأ من ملكية كل أسرة خزرية وكل ذلك يدل على أن الخزر لم يعيشوا في السهوب الجافة بل على ضفاف دلتا نهر الفولغا. إلا أن الحكم المسبق عن الهبوط المطرد لمستوى بحر قزوين وبالتالي ارتفاع مستواه في القرون ٦-١٠ الميلادية، حمل ب. أ. ريباكوف على

١- إثنوجينيز Ethnogenesis: نشوء، تكون الإثنوس.

افتراض أن الخزر لم يعيشوا في أسفل مجرى نهر الفولغا وإنما في السهوب ما بين نهري الفولغا والدون ومانيتش الشمالية. ومقر الخان الخزري وفقاً لحسابات ب. أ. ريباكوف يقع ليس على ضفة الفولغا بل في سهوب الكالميك إلى الجنوب من بحيرات سارابينسك ووفقاً لطبيعة تلك السهوب وصف ب. أ. ريباكوف الخزر بأنهم قبيلة نصف متوحشة، مترحلة، همجية، طفيلية، لم تترك آثاراً ثقافية (حضارية) مادية راقية.

ولكن أليس في تذبذب مستوى بحر قزوين خاصة يدور اكتشاف وحل المسألة الخزرية. فعند المنسوب المطلق ناقص ٣٢م وهذا يعني عند ٤ أمتار أخفض من المستوى الحالي اكتشف خط الشاطئ الذي تم تتبعه على طول شاطئ داغستان وعند ما نغيشلاك الشمالية.

ولاحظ ل. س. بيرغوم أيضاً حقيقة استقرار المستوى المنخفض لبحر قزوين التي عزاها إلى «عصور ما قبل التاريخ» ومع أن ل. س. بيرغوم لم يعترض على أن تاريخ مستوى الألف الأولى يعتبر ضرورياً فقط لإيراد «أدلة دامغة» فقد ظهرت الآن. وهذه الأدلة المهمة التي أدلى بها ب. أ. أبولوف وأ. ف. شنيتنيكوف عن المستويات المنخفضة لبحر قزوين في الألف الأولى قبل الميلاد نجحنا بإدخال بعض التعديلات عليها عن طريق استقصاء القسم التحت مائي من السور الدربنتي الذي بناه كسرى آنو شروان في القرن السادس الميلادي وغير الموصوف حتى الآن.

وتلخص العمل بالمسح العيني (الفحص المباشر) لتصميم السور وقياس الأعماق وتحديد طبيعة البناء التي قام بها رجال الضفادع البشرية الذين أنزلوا من القوارب والعوامات. ونجح تعليق مرساة الوقوف عن طريق وضع القوارب في مصراع السور وتوجيه بوصلة التعدين إلى نقطة العلام - برج الماء. ولم يتجاوز التفاوت المسموح أثناء القياسات الـ ١٠م الذي يعتبر في ظروف الاضطراب الدائم للمياه مثالياً.

واشترك في الأعمال أ. أ. أليكسين وغ. م. بروخورف وأ. ن. زيلنسكي الذين نحمل لهم الشكر على شجاعتهم وغيرتهم.

ويمتد السور من الشاطئ إلى ٣٠٠م في داخل البحر وينتهي بأنقاض البرج المكون عند أسفل القاعدة من حجارة ضخمة متراصة مصفوفة مباشرة على أساس صخري والقسم السفلي من البرج موجود على عمق ٥.٥م عند المنسوب

المطلق ناقص ٣٣.٥م وعند حافة الماء وهذا يعني عند المنسوب المطلق ناقص ٢٨م من السور الأساسي الممتد تحت الماء في البحر يمتد على طول الشاطئ سور مستعرض بطول ٨٠م مكون كذلك من حجارة ضخمة متراصة من العهد الساساني ووفقاً لهندسة البناء تعتبر النهاية البحرية للسور امتداداً مباشراً للسور الأرضي.

وإن إعادة إنشاء السور ممكنة بالحساب التالي:

- طول السور ٣٠٠م.
- عرض انهدام السور ٧٠م.
- ارتفاع الأنقاض المتوسط ١م.
- الحجم التقريبي للأنقاض يساوي ٣٠٠×٧٠×١= ٢١٠٠٠م^{٣}.
- بالنسبة للمادة المكونة من الكتل الضخمة بقياس حتى ١-١.٥م الموجودة بحالة أكوام غير منتظمة يعتبر حجم الفراغ في المتوسط ٢٥%.
- عر ض السور على الشاطئ ٤م وارتفاعه يتراوح بين ١٨ و ٢٠م.

نفترض:

١- إن السور الموجود في البحر له أيضاً عرض ٤م.

٢- إن طول الأنقاض يساوي طول السور ومن هنا يمكننا أن نحدد ارتفاع السور

$$\frac{٢١٠٠٠}{٣٠٠\times٤\times١.٢٥} = ١٤م$$

واكتشف بين أنقاض السور على عمق ٤م قطع آنية من طراز الأمفورة[١] مشابهة لكثير من الآنية المغروسة في التربة على طول الجهة الجنوبية للسور البري استخدمت كخزانات مياه للمدافعين وهذا يدل على أن اليابسة كانت في القرن السادس الميلادي عند المنسوب المطلق ناقص ٣٢م لأنه بخلاف ذلك يكون لا معنى لطمر آنية الماء العذب في التربة. وبهذا الشكل كان مستوى البحر في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي أخفض من المستوى الحالي على الأقل بـ ٤م عند ذلك انكشفت المنطقة المجاورة لدلتا الفولغا الحالية بمساحة لا تقل عن ٥٠.٠٠٠كم^{٢}.

وتتناقض المعطيات التي حصلنا عليها جزئياً مع المعلومات التي جاء بها جغرافيو القرن العاشر العرب.

وهكذا مثلاً: كتب قدامة (٩٤٨م) أن كسرى آنو شروان بنى سوراً من الكتل الصخرية والرصاص وحملت الحجارة على مراكب وقذفت في البحر طالما لم

١- Amphora قارورة ضيقة العنق ذات عروتين كان الإغريق والرومان يضعون فيها الزيت والخمر - المترجم.

obeikandl.com

يرتفع الردم فوق سطح الماء وعلى ذلك الردم استمر بناء السور وامتد السور ثلاثة أميال (نحو ٥كم) في البحر.

وفي الحقيقة امتد السور في البحر فقط ٣٠٠م ومع البرج من ٥٠-٧٠م أيضاً وبني لا على الردم وإنما مباشرة على القاع الصخري ومن دون أساس. ومن الواضح أن قدامة عرض فرضية بناء السور لأنه على العمق الكبير الذي كما يبدو كان موجوداً في زمانه لم يكن ممكناً بناء السور بخلاف ذلك.

ويبقى السؤال عن طريقة بناء السور الممتد في البحر غامضاً. ولكن هنا يلقي خبر المسعودي الضوء على ذلك.

يحدد المسعودي (٩٤٣-٩٤٧م) طول القطاع البحري من السور بميل واحد وهذا مبالغ فيه أيضاً ولكنه يصف فن البناء على خلاف ذلك: حملت الحجارة على القرب وأنزلت إلى القاع وبعد ذلك يبقر الغواصون القرب بالسكاكين. ويبدو ذلك من الوهلة الأولى غير معقول، وتكون المعلومات أقرب للحقيقة إذا أخذت بالحسبان بعض التصحيحات والانتقادات الضرورية. فالصفائح الضخمة لم يستطيعوا بالطبع وضعها ولا بأيّ قرب، ويجب الافتراض أن القرب كانت تربط إلى الصفائح بالأحزمة مما يسمح بوضع الصفيحة وهي في الحالة المعلقة في المكان الضروري. وبعد ذلك تقطع الأحزمة وتدخل القرب، بالعمل من جديد، غير أن مثل هذا البناء يمكن أن ينفذ فقط على عمق قامة الإنسان. وهذا يعني ليس أعمق من ١.٥م وبالنسبة للأعماق الكبيرة لا مفر من بعثرة الحجارة وذلك غير موجود كما أن زحزحة الصفائح /الكتل/ الساسانية (نسبة إلى الساسانيين أكاسرة الفرس - المترجم) تحت الماء هي فوق مقدرة أيّ غطاسين وهذا يعني أن المسعودي اختلق أيضاً فرضية هي في الواقع الأقرب للحقيقة من فرضية قدامة.

وقبل إعطائه تقييماً لنتصفح أخبار الإسخريوطي (٩٣٠م) الذي كتب أن «ما بين البحر والفرضة /المكلأ/ بني سوران موازيان للبحر والممر بينهما ضيق وملزوز والمدخل إلى المرفأ معمول بشكل متعرج، وتمتد عند مدخل المرفأ سلسلة بحيث إن السفينة لا يمكن أن تدخل إلى المرفأ وتخرج منه من دون إذن» وهذه المعلومات لا يمكن أن تنسب لا إلى سوريْ دربنت الشمالي والجنوبي ولا إلى فرعي السور الشمالي حيث العلوي منهما، المستوى بالأرض الآن، موجود عند الشاطئ بالقرب من الخط الحديدي الحالي. والثاني وهو مكتشف الآن في الماء عند الشاطئ نفسه والمسافة بينهما أكبر بكثير مما أشار إليه الإسخريوطي.

ويتفق الوصف فقط مع البرج الذي يكمل السور. فهو مستدير في الأساس، ولكن قطره من ٥٠-٧٠م ويحتمل أن ممرات دخول السفن كانت موجودة فيه، ويلتصق البرج مباشرة مع السور وأن التحميل أو التفريغ يمكن أن يتم من قمته.

وإن معلومات الاسخريوطي تتفق مع معطياتنا وبالأخص لأن الاضطراب الدائم تقريباً يستثني إمكانية أيّ طريقة لتفريغ السفن في الفرضة الدربنتية [«تعليمات الملاحة في بحر قزوين» إصدار عام ١٩٥٩م الصفحة ٩٢] ويمتد خلف البرج في البحر انحسار

في الأعماق، وهكذا يمكننا اتخاذ ما وراء بقايا البرج الموجودة على مسافة ٣٥٠م من الشاطئ الحالي عند المنسوب المطلق ناقص ٣٣.٥م علامة للمنسوب وعلى هذا الأساس نحن نرفض معلومات المسعودي وقدامة حول طول النهاية البحرية للسور فلو امتد البحر إلى ٤.٧كم من الشاطئ الحالي إلى الشرق لكان قد أغرق كل دربنت حتى القلاع ضمناً.

ولحسن الحظ عندنا رقم حقيقي آخر لطول السور في القرن العاشر الميلادي الذي يشير إليه أ. ف. شنيتنيكوف معتمداً على ف. ف. بارتولد وهو ٦٠٠ ذراع عربية وهذا يعني ٣٠٠م. وهذا تقريباً هو المستوى الحالي أو أخفض قليلاً، وهذا يعني أن بحر قزوين توقف في القرن العاشر الميلادي عند المنسوب المطلق ناقص ٢٨.٥-٢٩.٥م.

والنقطة التي استنتجناها قريبة من النقطة التي تم الحصول عليها في حسابات ب. أ. أبولوف المشابهة لمستوى عام ١٢٣٤م المعمولة وفقاً لمعطيات عوامة «كرفان - ساراي»[1]. كتب ب. أ. أبولوف «عند بناء القلعة عرف علماء ذلك الزمان أن مستوى البحر في الزمن الماضي المعروف عندهم لم يرتفع إلى أعلى من التل لأنه لو كان بخلاف ذلك ما كانوا بنوا القلعة عليه. ومن المحتمل أن ذلك الوقت لم يقل عن ٢٠٠ سنة».

وبالأخذ بالحسبان طبيعة تراوح مستوى قزوين المتطورة بوثبات يمكننا أن نفترض أن ارتفاع البحر إلى ٢.٥-٣م قد حصل أيضاً في القرن العاشر مما دعا الجغرافيين العرب إلى الاهتمام الزائد بأي شكل بني فيه السور القوي جداً على ذلك العمق الكبير الذي حتى ذلك التاريخ لم تحدث مثل تلك المسألة من قبل.

وكان ارتفاع المستوى مأساوياً لخازاريا لأنها فقدت أغنى أراضيها وضعفت لدرجة أنها أصبحت فريسة سهلة لفصائل متطوعي سفياتوسلاف في عام ٩٦٥م. وبالطبع ليس تغير الظروف الفيزيائية - الجغرافية السبب الوحيد لفناء خازاريا ولكنه يعتبر من بين الأسباب الأخرى التي يجب الأخذ بها.

وسمح تحديد ف. ن. أبروسوف للتغاير المتزامن لترطب المنطقة الرطبة والمنطقة الجافة من أوراسيا بمقارنة التقلبات المناخية مع المصائر التاريخية للشعوب المترحلة ومع تراوح مستوى بحر قزوين. لأن الفولغا الذي يحمل المياه من المنطقة الرطبة يملأ ٨١% من قزوين وارتفاع مستواه (مستوى قزوين) يتطابق مع تجفاف السهوب المحيطة به وبالعكس فإن امتلاء الأرال والبلخاش بأنهار المناطق الجافة يعني تجفاف سهول روسيا الوسطى.

إلا أنه للحصول على الصورة التامة يجب الأخذ بالحسبان لا احتمالين وإنما ثلاثة احتمالات لمرور المنخفضات الجوية الحاملة للرطوبة القصوى (المياه) من الآزور (منطقة جزر الآزور في المحيط الأطلسي - المترجم) إلى أوراسيا وهي:

١- حدد أ. أ. أليكسين وهو متفحصاً خليج بايلوف في عام ١٩٦٣م بالقرب من مدينة باكو المنسوب المطلق بأساس كرفان - ساراي بالعلامة - ٣٢م وقدم مشاهداته بلطف إلى النشر.

- الطريق الجنوبي بالمنطقة الجافة.
- الطريق الأوسط بالمنطقة الرطبة.
- الطريق الشمالي بمنطقة القطب الشمالي.

واتجاهاتها مبنية بالرسم التخطيطي وارتباط الظروف المناخية بطرق المنخفضات الجوية مبين بالجدول التالي:

ارتباط الظروف المناخية في أوراسيا بموضع مركز التأثير الدائم في المحيط الجوي			
موضع مركز التأثير الدائم في المحيط الجوي	مرور المنخفضات		
	شمالي	أوسط	جنوبي
منطقة القطب الشمالي	رطب	قاحل	قاحل
منطقة القطب الشمالي	قاحل	رطب	قاحل
منطقة القطب الشمالي	قاحل	قاحل	رطب
مستوى قزوين	منخفض	عالي	منخفض
جريان آمودايا	مرتفع	منخفض	مرتفع

ويؤثر الترطب أكثر أو أقل في الطبيعة وبالأخص على اقتصاد الشعوب المقيمة في المناطق السهبية التي تتخللها الحراج من أوراسيا والأكثر تحسساً في الاستجابة للتبدلات المناخية هي القبائل الرحل التي تعيش على الاقتصاد العيني.

فالترطب أعطاها الوفرة التي سمحت بإنشاء الخانيات القوية والقيام بالحملات المظفرة وأجبرهم الجفاف /اليباس/ على ترك الأماكن المألوفة لهم والازدحام في أطراف السهب العظيم.

وبجمع المعطيات الفيزيائية - الجغرافية والتاريخية السياسية نستطيع سد الثغرات (النقص) أولاً، وشرح الظواهر الغامضة ثانياً ولم يسجل دوماً ارتحال القبائل في الألف الأولى الميلادية في الوثائق الكتابية ولم يوصف أبداً بشكل كافٍ ودقيق تماماً وتعتبر الطريقة الوحيدة لاختبار المصادر هي التنقيبات الأثرية للمساحات الواسعة لتحديد تغير المدنيات /الثقافات/. وحتى الآن لم يتم استقصاء دلتا الفولغا من وجهة النظر هذه. ويجب الأخذ بالحسبان أن ارتفاع بحر قزوين في القرن الرابع عشر غطى بالرواسب القاعية الطبقة الثقافية وحكم على البعثات الأثرية بالفشل، وهذا صحيح بالنسبة للأماكن المنخفضة. ولكن العديد من تلال بائيرو بقيت حتى أثناء طغيان البحر إلى المنسوب المطلق ناقص ٢٠م غير مغمورة، ولحسن الحظ بقي عليها آثار تسنى بفضلها استرجاع تاريخ الدلتا.

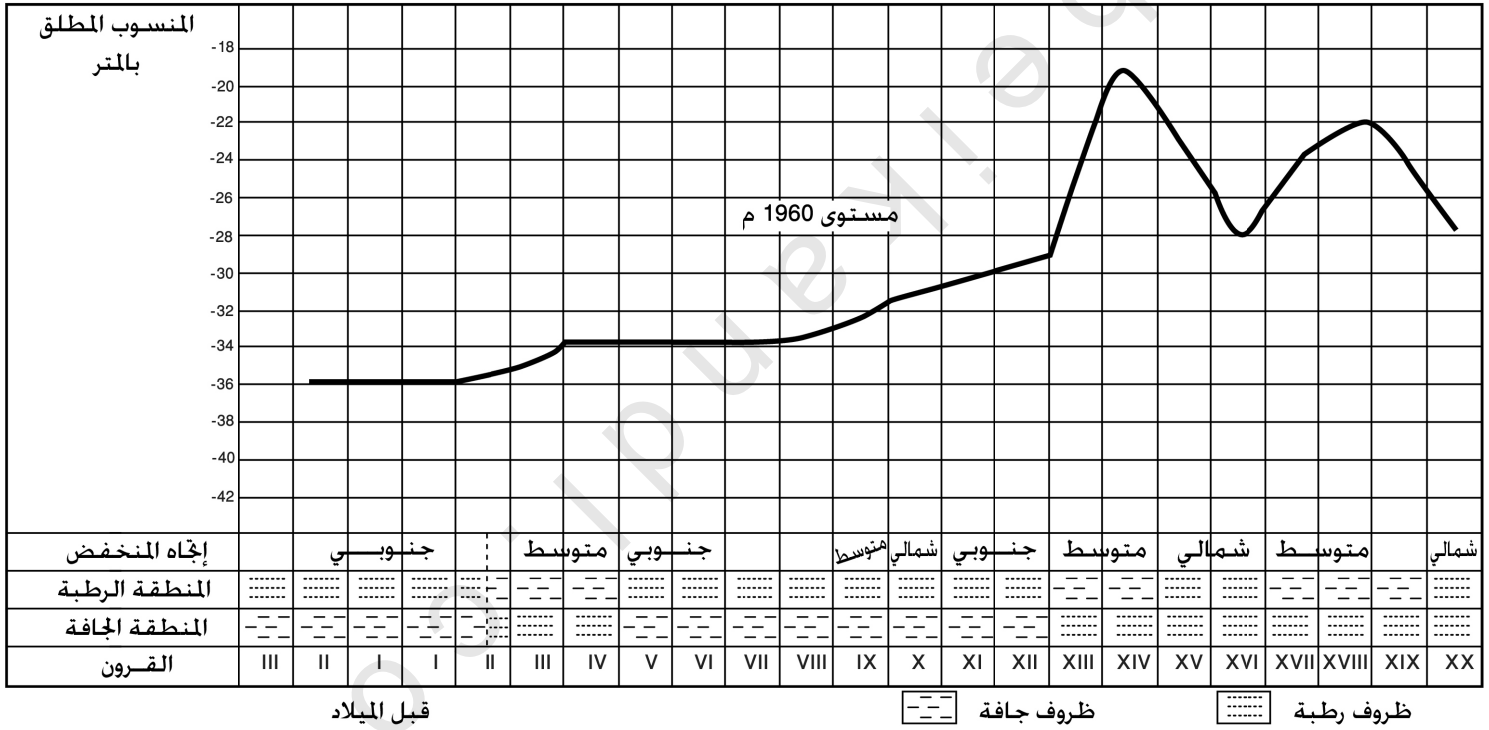

مخطط بياني يوضح تغير مستوى بحر الخزر بالنسبة لتغير الظروف المناخية في أوروبا

وانكشفت لنا ثلاث مجموعات أثرية تتوافق مع ثلاثة عهود تاريخية وهي: الحضارة السرماثية بحدود الميلاد والخزرية المتزامنة معها التوركمانية الغُزّيّة في النصف الثاني من الألف الأولى الميلادية والتترية في القرون ١٣-١٦ الميلادية. نشأت كل منها نتيجة لإدارة نظام اقتصادي محدد يتجاوب مع الظروف الطبيعية لزمانه وبالتالي حسب تغير طبيعة الحضارة يمكننا أن نحكم على تغير صفحة /أديم/ الأرض التي عاشت عليها تلك الحضارة.

وكان المناخ في حدود الميلاد في المنطقة السهبية من أوراسيا رطباً نسبياً وتطورت تربية الماشية: فالهونو[1] في منغوليا استقروا في سيميرتش والآلان في السهوب عند بحر قزوين استوطنوا مجالاً هائلاً تحول مؤخراً إلى صحارى واجتازت الحضارة الرحلية عهد الازدهار.

وبقي من تلك المرحلة في أسافل مجرى نهر الفولغا آثار من الحضارة السرماثية الآلانية وانكشفت لنا مقبرة سرماثية عند الضفة العليا لنهر آختوب ما بين قرية سِليترِنويي وقرية باستا في عام ١٩٥٩م. وأخرى بالقرب من قرية اينوتاييفكا في عام ١٩٦٠م وقطع من الفخار السرماثي في تل ستيبان رازين في عام ١٩٦٠م ومقبرة فيها مشابك برونزية ومرآة في تل بيلينغا عام ١٩٦٢م.

ومما لا شك فيه أن سكان مناطق الدلتا السفلى كانوا في وحدة تامة وحضارة واحدة تدل على أرضٍ متماثلة لأن الحضارة المادية بالنسبة للاقتصاد العيني هي تابعة للظروف الطبيعية.

ووفقاً لمقدمتنا عانت المنطقة الرطبة في ذلك الزمن من مرحلة الجفاف وكان الفولغا ضحلاً، وعليه، فالقسم الكبير من الدلتا الحالية عبارة عن سهب كثير التلال ومسكون كذلك بالرحل كما من حوله أيضاً. وكانت الروافد الأساسية لنهر الفولغا هي نهرا آختوب وبوزان ومن المحتمل أن هذا النهر صب في الأورال الغربي المتصل ببحر قزوين بمجرى ضيق.

وبدأ يباس المنطقة الجافة في القرن الثاني الميلادي وفي تلك المرحلة ارتفع منسوب بحر قزوين إلى العلامة ناقص ٣٣-٣٢م وحمل الفولغا تلك الكمية من المياه إلى سريره /مجراه/ في ذلك الوقت لم يستطع استيعابها وشكل دلتا المثال

١- الهونّو: قبائل رُحّل تشكلت في بداية العام ١٠٠٠ق.م من المغول الأصليين، وهم منحدرون من شمال الصين ويتميّزون بشكل أوروبي وكانوا يسمون (دي).

الحالي، وامتدت الدلتا إلى الجنوب تقريباً إلى شبه جزيرة بوزاتش (مانغيشلاك الشمالية) التي تتفرع فيها مجارٍ ضيقة من الأورال الغربي وأما منطقة صفحة الأرض /الأديم/ المتشكلة حديثاً عند الحدود الشرقية والغربية فيجب الحديث عنها بإسهاب.

ولتحليل مشاهداتنا ننطلق من وضع يقيني أنه في عصر الاقتصاد العيني ارتبط انتشار الشعب بشكل وثيق مع الأرض التي تُقيته، فالسرماثيون ساكنو السهوب طردوا من قبل الهون[1] في القرن الثالث الميلادي وكذلك لم يتوقفوا عند منطقة دلتا الفولغا. وبدءاً من القرن الرابع ظهر الخزريون هنا شعباً من تكوين مغاير تماماً - صيادو أسماك ومزارعون فلاحون. ويتميز العهد من القرن الرابع إلى العاشر بالترطب الثابت للمنطقة الجافة وبالتالي أعطت المنطقة الرطبة رطوبة أقل، ودخل الفولغا في ضفاف الكثير من المجاري التي شقها منذ ٢٠٠ عام منصرم مشكلاً صفحة دلتا تكون حياة الترحال فيها لا مفر منها، وكانت جزيرة خضراء في وسط السهوب المحيطة بها وهكذا تضعها وثيقة يهودية خزرية من القرن العاشر: «بلادنا لا تتلقى الكثير من الأمطار، وفيها الكثير من الأنهار التي تكثر فيها الأسماك وعندنا فيها كثير من الينابيع، بلاد خصبة وغضة /أثيثة/ تتكون من حقول وكروم وبساتين وحدائق وجميعها تروى من الأنهار. أنا أعيش في داخل جزيرة وحقولي وكرومي وبساتيني وحدائقي موجودة في داخل جزيرة». استخدمت كلمة جزيرة في أدب القرون الوسطى العربي كذلك كحرج في وسط السهوب ولكل فضاء محدد. وكما يبدو استخدمت هنا بالمعنى نفسه أيضاً.

ودققت أعمالنا الأثرية في الأعوام ١٩٦٠-١٩٦٣م موقع خازاريا. فالآثار الخزرية تتجمع في القسم المركزي من دلتا الفولغا ما بين سومينيتس العريض والفولغا القديم واكتشفت المقابر مع الموجودات في تلال بائيرو ستيبان رازين وكازينوم وكورني وبارانيم (الخرفان) وتوغينسكي ووجد في التلال المجاورة بقايا قرى: ساحات مرصوصة /مداسة/ وأرضيات بيوت مع فخار من العهد الخزري. ولكن الخزر صعدوا إلى التلال في وقت متأخر إلى حدٍ ما نظراً لانغمار أراضي الدلتا المنخفضة أثناء طغيان بحر قزوين أما القرى الباكرة فقد

١- الهون: جزء من الهونّو الشماليين انسحبوا للغرب بعد حربهم مع الصينيين سنة ٨٧-٩٣م حيث اختلطوا مع الأوغريين - السكان الأصليين للمنطقة - وأسسوا شعب جديد عُرف باسم الهون.

توضعت إلى الأسفل عند المياه واكتشفت إحداها في سبخات إيفوليكينسكي على بعد ١٥كم من الشاطئ في مكان ضحل.

وأثناء تعميق المجاري الملاحية وجدنا في المجروفات خزفاً خزرياً وعظام حيوانات والمنسوب المطلق للطبقة التي استخرجت منها المجروفات هي ناقص ٢٩.٦م.

وبما أن القرى توضعت في السهل فعند وجود ترسبات بفعل الريح حتى ٢م كان من الضروري لسلامتها أن يكون مستوى البحر ليس أعلى من ٣٢م ومثل هذا المستوى كان في القرن السادس الميلادي.

وسمحت لنا مشاهداتنا في دلتا الفولغا باكتشاف آثار خزرية في التيريك فأسافل التيريك غير صالحة للقرى الحضرية لأنها معرضة للفيضانات المستمرة للأنهار التي تجري في اتجاهات عريضة واتضح أن الكثبان الرملية هنا على الضفة اليسرى لنهر التيريك ما بين محطات تشيرفلينوي وكارغالينسكوي مشابهة لتلال بائيرو.

فالكثبان التي تحد الوادي الذي يتعرج فيه النهر السريع هي: في حقيقة الأمر الشاطئ الأصلي وهذا ما برهن على فرضيتنا بتطابق المجال الإثنوسي مع صفحة الأرض (التطابق المساحي الإثنوسي مع أديم الأرض - المترجم). فكل النواحي الجنوبية للكثبان مزروعة حرفياً بالخزف الخزري.

وعلى ما يبدو أن الاستيطان هناك في القرون من السادس إلى العاشر الميلادي كان أكثف حتى من القرن الرابع عشر عندما توضعت في المنطقة (ستانيتسات) قرى قوزاق الأعراف الكبيرة.

وهكذا شغل الخزر كما عند الفولغا كذلك عند التيريك المناطق «التي لا تصلح» لنمط الحياة الرحلي وكانت أعمالهم الأساسية هنا وهناك هي البستنة والصيد وصيد الأسماك ومن الواضح أن الآخرين دفعوا الخزر لاستيعاب أسافل مجرى نهر التيريك وشاطئ قزوين الذي كان في ذلك الوقت أخفض بأربعة أمتار من القرن العشرين الميلادي، وأن تغلغلهم من التيريك إلى الفولغا يمكن أن يحصل فقط على خط الشاطئ المختفي الآن تحت الماء وكانت السهوب الجافة غير جذابة لهم. وفي الواقع لا يوجد في مناطق الكالميك أيّ آثار من العهد الخزري. ولكن تشابه الظروف الطبيعية لوادي التيريك ودلتا الفولغا سمحت للخزر باستيعاب كلتا المنطقتين الملائمتين لاقتصادهم وظروف حياتهم.

وبتحديد الارتباط المتبادل بين الحضارة الأثرية وصفحة الأرض نحاول أن نحل المسألة الجغرافية - التاريخية ونوضح حدود خزر الفولغا وبالأخص باليوغرافيا (دراسة الكتابة والنقوش القديمة) دلتا الفولغا.

والحدود الطبيعية لخازاريا من الشرق هي الصحراء الرملية لكازاخستان الغربية (انظر الخريطة صفحة ١٩) وتمتد الرمال الريحية (الزفزف - الوعساء) بالقرب من سيليتيرنيا إلى ضفة نهر آختوب ويتسع أسفل الحوض ويشكل سهلاً

واسعاً في شرقي الدلتا، وهنا ما بين تلال بائيرو المنحدرة تدريجياً والمقطوعة ببحيرة مستطيلة - هي بقايا مجرى الفولغا - يروى الوادي من الأخير (الفولغا) إلى الشرق من مجرى الكيغاتش غير الجاف الغني بالأسماك والمراعي التي تحيط به مغطاة بالأعشاب الخضراء بحيث إن المنطقة الموصوفة يمكن أن تكون مكاناً صالحاً للاستيطان، وفي الحقيقة في منطقة قرية كوردون ليس بعيداً عن السبخات الملحية اكتشف فخار متراكم من القرون الثامن إلى العاشر في أحد التلال عند المنسوب المطلق ناقص ١٨م وفي القرن الخامس كان هنا واحد من مجاري الدلتا وهذه اللقية ليست وحيدة: ففي المنطقة شبه الصحراوية المتاخمة للسهل الدلتاوي بالقرب من المرتفعات الطينية في تخوم أزاو يصادف في كل جرفة قطع من الفخار ولو بكمية غير كبيرة. ولذلك يمكننا أن نستنتج أن سكان هذه المنطقة كانوا كثيفين نسبياً.

واستقر في هذا السهب ليس الخزر أنفسهم لأن الفخار من حيث الطين المعمول منه وطريقة الشي يعود إلى النموذج التيوركي المنتشر من منطقة البايكال (كورّكان) حتى توركمانيا (منطقة الغزّ) ويصادف في ساركيل التي شكل المرتزقة الرحل كما هو معروف الحامية فيها.

ولكن لماذا أخلى الخزر هكذا بسهولة المراعي الجيدة للجيران حتى ولو كانوا أصدقاء؟ وتجيب الباليوغرافيا (الكتابات القديمة) عن هذا.

في القرون ٦-١٠م عندما صار بحر قزوين إلى المنسوب المطلق ناقص ٣٢م تعرت مساحات هائلة كانت مغطاة بالنباتات، ومن الواضح أن هذه المراتع سمحت للخزريين بإطعام قطعانهم وبصيد الأسماك من مجاري الأنهار ومياه الشاطئ الضحلة. وبغض النظر عن أن السهل المتاخم للبحر يمتد طويلاً إلى الشرق فهو لم يستخدم كله مكاناً لإقامة الخزر فقد استمالت المراعي في منطقة أضحال جامباييسك سابقاً والجافة حالياً إلى شبه صحارى، وهنا استطاع فقط الرحل الحاليون من الغُزّ والبتشينيغ والبولوفيين أن يجدوا رزقاً لأنفسهم. وهذه السهوب ملائمة للغاية للماشية لأنه في الربيع والخريف تتغطى شبه الصحراء بالنباتات الوفيرة وإلى جانب هذا لا يوجد هناك بعوض ولا مآسي الوديان النهرية.

ويتعقد السؤال عن الحدود الشرقية لخازاريا لأنه من أضحال شارونوفسكي الواقعة إلى الشرق من غاينوشكينا يبدأ ممر القوافل الممتد عبر رمال الرين إلى الشمال والآن يمتد على طول ممر القوافل طريق السيارات من غاينوشكينا إلى سازدي (قرية قوزاقية غير كبيرة) ثم إلى الشمال. وعلى الطريق هناك آبار واقعة في تجاويف محفورة واكتشف في حالة واحدة قطع متراكمة من الفخار من كل العهود والنماذج وبروز سرماثي وتوركماني وتتري وكذلك شظايا من الصوان. وفي حالة أخرى عند قرية سازدي وكانت مساحة التجريف أقل ووجد فيها فقط بعض قطع من الفخار التوركماني.

وعلى ما يبدو تؤدي طريق القوافل إلى منطقة الأورال حيث تصادف على هذا النحو اللقى المتعددة من أغراض الفن الفارسي. والحكم بحسب الفخار المكتشف فإنه أدى وظيفته من قبيل ظهور خازاريا الفولغا وبعد فنائها.

وتبقى علاقة الخزر بهذا الممر والتجارة المارة بطريق غير مباشرة عن تلك التي تمضي بنهر الفولغا غير واضحة. ومن المستبعد أن تنجر للمرور عبر الصحراء في حين كان فيه طريق سهلة بالنهر ولكن إذا أخذ بالحسبان وقوف قزوين عند المنسوب المطلق ناقص ٣٢م فمن أضحال شارونوفسكي إلى مانغيشلاك كان طريق مباشر بالبر مع معبر واحد غير كبير أتاح إمكانية تفادي نقل الشحنات من مكان لآخر والطواف في مجاري الدلتا حيث تصبح ضحلة كثيراً والتيارات سريعة فيها.

ومرت الحدود الشرقية لأديم أرض الدلتا في العهد الخزري (القرون ٦-١٠م) إلى الغرب أكثر مما هي عليه في القرن العشرين. وكان نهر سومنيتس العريض هو النهر الحدودي الذي يجري الآن في السهل العريض فاصلاً منطقة تلال بائيرو للدلتا المركزية عن تلال بائيرو الشرقية لكازاخستان (أزاو) وفي ذلك الوقت وكتلال مركزية كانت مطمورة حرفياً بالمقابر والفخار. واحتوت ضفاف نهر كيغاتش فقط على فخار تتري وكمية ضئيلة من الفخارية التوركماني (الغُزّي).

زد على ذلك أن اللقى غير مرتبطة بالنهر ومن الواضح أن الكيغاتش نتيجة للحت الجانبي شق طريقه بعد القرن الرابع عشر وقبل هذا التاريخ انساب شرقاً في أضحال جامباييسكي عبر أزاو حيث بقيت السبخات في سرير النهر الذي جف مؤخراً في القرن الثامن. وسمحت اللقى الفخارية التي تركها الغُزّ بتحديد هذا التاريخ.

وامتدت الدلتا إلى الغرب إلى أقل من الوقت الحالي. وكما يبدو من اللقى الأثرية عند ضفاف باختيمير والفولغا الكبير والفولغا القديم غرب خط الطول ٤٨ ْ - باستثناء العهد التتري - أن تحول مجاري الفولغا إلى الغرب قد حصل بعد طغيان البحر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين أما في القرنين الثالث عشر والرابع الميلاديين فكان

واحد من تلال بائيرو

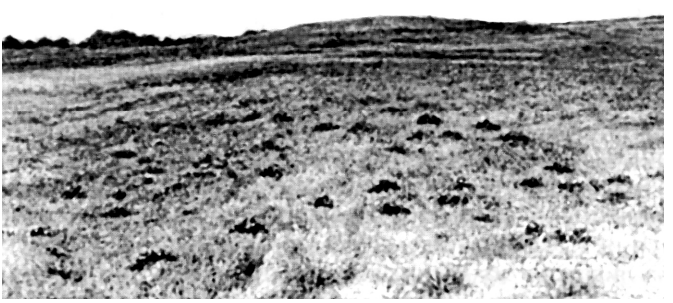

هناك سهب هضبي جاف هو امتداد لمنطقة السبخات السهبية إلا أن الوهاد بين تلال بائيرو من المستحيل أن تكون قد امتلأت بالمياه المنسابة أبعد بكثير إلى الشرق وبالتالي لم يكن هناك بحيرات.

وحدث التغير الدوري لأديم أرض منطقة بحر قزوين في نهاية القرن الثالث عشر نتيجة لطغيان قزوين وارتفاع مستوى المياه إلى المنسوب المطلق ناقص ٢٠م لذلك لم يعثر على الفخار الغُزّي في الفترة من القرن السابع إلى العاشر الميلادي ولا في مكان أخفض من العلامة المحلية ناقص ١٨م. ومثل سرطانات الـ Cardium Edule يدل هذا الخزف على حدود البحر الزاحف ولكن من جهة اليابسة فهي مغطاة في الأسفل بالرواسب القاعية.

وإن عدم وجود القشريات السرطانية Cardium Edule في طبقات الأرض في شمال قزوين مفهوم لأن مياه شمال القزوين كانت غير مالحة بسبب الفولغا ومن المستحيل أن تحتوي على حيوانات المياه المالحة.

وغير ارتفاع مستوى بحر قزوين وغزارة الفولغا بشدة وضع خازاريا فصارت مجاري الدلتا صالحة لمرور القوارب المسطحة القعر وبدأ الروس من القرن العاشر الميلادي بالتغلغل بالطريق المائي إلى بحر قزوين مما أدى إلى تعقد علاقتهم بالخزر أولاً وثانياً - نقصت مساحة الدلتا وصارت الحقول والبساتين والمراعي والمسامك تحت الماء وازدحم السكان على تلال بائيرو هرباً من الفيضان وأنهار اقتصاد خازاريا.

وبحسب معطياتنا كانت العلامة المحلية لمستوى قزوين حتى أواسط القرن العاشر الميلادي نحو ناقص ٢٨.٥م وهذا يعني أن الخزر فقدوا نحو ٢/٣ من منطقتهم وبالتالي ثروتهم ولم يستطع الخزريون الخروج إلى السهوب المجاورة طالما يجوب هناك المحاربون الغُزّ حلفاء الأمير الروسي سفياتوسلاف. وبدأت الحرب مع الخزر في عام ٩٦٥م وكان سحق البلاد شبه المغمورة أمراً لا مفر منه، ورحل الروس بعد انتصارهم. أما الغُزّ فاحتلوا خازاريا لبعض الوقت، الأمر الذي تتحدث عنه قطع فخارهم المتفرقة بكميات غير كبيرة على تلال الدلتا المركزية، ولجأت بقايا الخزر إلى طلب المساعدة من خوارزم ونالوها مقابل الدخول في الإسلام. وظهر أن نجاتهم كانت بذلك فلما ارتفع البحر إلى المنسوب المطلق ناقص ٢٠م وغمر القرى الخزرية الباقية في الدلتا والفولغا المترع بالمياه اجتاحها في الأراضي التي غمرتها مياه الفيضانات.

ووجد أخلاف الخزر ملجأ في ساراي عاصمة نصف العالم وذابوا في الخليط الإثنوسي للقبيلة الذهبية وسمح الدين الإسلامي لهم بأن يصبحوا تتراً تلقائياً

كما سمي في القرنين ١٣ و ١٤ الميلاديين الرعايا المسلمون المخلصون لخان ألاولوس[١] العظيم جوتشييف.

وفي أواسط القرن الرابع عشر الميلادي بدأ البحر بالانخفاض وحتى عام ١٥٥٩م نزل المستوى إلى المنسوب المطلق ناقص ٢٩م[٢].

وخلال هذا الوقت أفلح الفولغا بجرف ضفته اليمنى واندفع بالمجاري الحالية باختيمير والفولغا القديم وانطمر اختوب بالرمال وأصبحت المجاري الشرقية ضحلة وصار النهر الجديد طريقاً تجارياً سار فيه إلى البحار الثلاثة التاجر التفيري (نسبة إلى مدينة تفير الروسية - المترجم) أفاناسي نيكيتين والكثيرون من أمثاله.

والآن أصبحت التجارة من أكثر الأعمال ربحاً وضبطها يتم من القلاع المبنية على تلال بائيرو عند ضفاف الأنهار ومثل تلك «الأطلال الكبيرة التصميم»[٣]. تسمى حالياً «أطلال الشيطان» على نهر باختيمير على الأسفل من قرية مایاتشنوفو. والمنسوب المطلق للتل هو ناقص ٩.٩م والسهل من حوله ناقص ٢٥.٦م وهذا يعني أن ذلك كان قلعة على جزيرة. وكانت القلعة محصنة بإحكام وجوانب التل مقطوعة مشكلة شاقولاً بارتفاع ١١م وإلى الأسفل من ذلك لا توجد أيّ علائم لأعمال ترابية. ومن الواضح أن المياه استوت عند هذا المستوى وهذا يعني عند المنسوب المطلق ناقص ٢١م وكانت الجدران مبنية بالفخار التتري المميز ٢٢×٢٠.٥×٤سم الوردي المحزز المملس بالأصابع والمشوي جيداً والجدران مبعثرة حالياً وباقٍ منها فقط حطام الفخار، وسطح التل مغطى ببقع مربعة من النسافة الترابية وخزف الأقوام الرحل وعظام الناس المقتولين ولا تتجاوز سماكة طبقة التربة الزراعية ٤سم.

ومن الواضح أن القلعة لم تبق طويلاً وخربت في عام ١٣٩٥م من قبل تيمورلنك[٤] وعن الاقتحام تتحدث بقايا الحرائق وقطع الأدوات والأسلحة الحديدية المصهورة ويؤكد علم المسكوكات آراءنا.

١- اتحاد قبائل في منطقة معينة تحت قيادة خان أو زعيم /قائد/ عند شعوب آسيا المركزية والوسطى وسيبيريا - المترجم.

٢- كان الوضع عرضياً. ففي الأعوام ١٧٢٠-١٧٢٣م ارتفع مستوى قزوين إلى المنسوب المطلق ناقص ٢٤.٦م أما حتى عام ١٨٠٧ فإلى ناقص ٢٣.٢م ومن ذلك الوقت ينخفض ولكن لا يستثنى أن الانخفاض يتبدل بارتفاعات دورية.

٣- افترض ب. أ. ريباكوف أن «الأطلال» الموصوفة في «كتاب الأطلال الكبيرة» يمكن أن تكون بقايا إيتيل ولكن أبحاثنا استبعدت هذه الفرضية حيث لا يوجد في الأطلال طبقة حضارية خزرية.

١- استولى تيمور أثناء حملة توختاميش بالهجوم ودمر جميع القلاع التترية في منطقة الفولغا الأسفل. ولم نلاحظ حروباً أخرى من هذا الطابع في هذه المنطقة بالتاريخ.

وعثر في الأطلال على درهم جانيبيك (١٣٤٠-١٣٥٧م) وعلى عملة نحاسية (بول) من سنوات الستينيات للقرن الرابع عشر.

ويؤرخ الفخار الأزرق السماوي والزخارف بالأزرق الغامق بذلك التاريخ نفسه وهذا تماثل دقيق مع فخار ساراي باتوخان الواقعة أطلالها على ضفة نهر آختوب عند قرية سِليترِنويي، ويظهر أن القرية التترية على تل قراقولسكي على الفولغا القديم مشابهة أيضاً فهناك لا توجد أسوار ولا تحصينات ولكن اكتشف بدلاً من ذلك موقد آجري كبير مع بقايا ثيران وسمك أحمر، ويحتمل أن كرفان ساراي كانت هنا لأن بقايا الأرضيات الترابية اكتشفت على كل التلال.

ويشبه ذلك الآثار الخزرية المتجمعة في القسم المركزي من الدلتا والتترية المتمركزة في القسم الغربي منها بحيث يبدو ذلك أساساً لافتراضنا حول تاريخ انتقال مجرى الفولغا.

ولكن لماذا لم ينتشر التتار في الدلتا المركزية بينما انتشروا في الدلتا الشرقية وعلى نهر الكيغاتش نجد من جديد آثارهم؟

أولاً: اصطيد سمك الفولغا الأحمر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لا للبيع بل للاستهلاك الذاتي ولذلك كانت الحاجة إليه قليلة نسبياً.

ثانياً: تمتعت قرى القبيلة الذهبية التترية المحضة بالإشراف الكامل على الطرق التجارية التي تعبر حتى الآن نهري باختيمير وكيغاتش الغزيري المياه وكان في السكن خارج القلاع خطر لأن النوغاي لا يعيشون أبداً في وئام مع التتر وكانت الدلتا شتاءً مفتوحة لغزواتهم وصارت آمنه فقط بعدما عقد الروس حلفاً مع الكالميكيين وطردوا قبائل النوغاي وبهذا الشكل تكون الحقبة التي تهمنا قد انتهت.

والآن نستطيع أن نستنتج نتائج موضوعية معينة ناجمة عن معلوماتنا وكذلك تفصح عن بعض الآراء العامة المتعلقة باستخدام أسلوب الجمع بين الجغرافية التاريخية والباليوغرافيا والباليوإثنوغرافيا (العلم السلالي القديم).

استنتاجات خاصة:

١- كان الخزريون شعباً حضرياً عاش في أسافل مجرى التيريك والفولغا في مناطق مغطاة الآن جزئياً بالبحر.

٢- تشكل أديم الدلتا الحالي (أو أعيد تشكيله إذا أخذ بالحسبان طغيان بحر قزوين المشار إليه) في أواسط الألف الأولى الميلادية وتشكل القسم الغربي منها بعد

طغيان القرن الثالث عشر وبالوقت نفسه تحول مجرى نهر الكيغاتش ملتحقاً بالدلتا الشرقية.

٣- إن فناء خازاريا لا يحدده فقط الأسباب السياسية والسنن الاجتماعية بل الكوارث الطبيعية أيضاً - طغيان بحر قزوين.

آراء عامة:

١- إن أساليب اقتصاد الشعوب الساكنة على الشواطئ الشمالية لبحر قزوين وبالتالي مصيرها التاريخي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بدرجة ترطب المنطقة الجافة وبالأخص مستوى استقرار بحر قزوين.

٢- إن تقصي المصير التاريخي للشعوب التي سكنت الدلتا يسمح بالحكم على التغيرات المناخية وتبدلات أديم الأرض وكذلك على مستوى بحر قزوين.

٣- إن استخدام السلّم التاريخي السياسي من وجهة النظر المشار إليها يعطي الترتيب الزمني المطلق للعمليات الجيولوجية للعصر الراهن ويبدو ممكناً تطبيق أسلوب البحث المقترح على المناطق الأخرى حيث توجد ملتقيات /تواصلات/ لمناطق أديم الأرض والشعوب المقيمة عليها والتي تاريخها معروف ولو بالملامح العامة.

obeikandl.com

خازاريا والتيريك
(أرضاً وإثنوساً: ٢)

سمحت أبحاثنا المكرسة لتحديد الارتباط الوظيفي للظواهر الجغرافية الفيزيائية والباليوإنثروبولوجية ومادة تاريخ آسيا المركزية وآثار دلتا الفولغا باستنتاج النتائج التالية:

١- يعتبر المصير التاريخي للشعب المدروس نتيجةً لنشاطه الاقتصادي المرتبط مباشرة بالحالة الديناميكية (حالة سرعة تطور) لأديم الأرض الذي يستوعبه.

٢- إن المدينة الأثرية لهذا الشعب هي عبارة عن الأثر البلوري لمصيره التاريخي الذي يعكس الحالة الجغرافية القديمة لأديم الأرض في العهد المؤرخ إطلاقاً.

٣- إن اقتران المواد التاريخية والأثرية يسمح بالحكم على طبيعة أديم الأرض المستوعب لهذا الشعب في العهد المدروس وبالتالي على اتجاه تبدله. وبالعكس يعطي توفر المعطيات المحددة عن تبدلات المناخ ولا سيما عن علاقات أديم الأرض فيما بينها إمكانية الكشف عن آثار الشعوب المنقرضة منذ زمن بعيد.

٤- بالنسبة لهذا المسلك يصبح ممكناً التركيب التاريخي الجغرافي الذي على أساسه يمكن القيام بالتنبؤات التي لها أهمية اقتصادية.

وكان عمل بعثه شمال قزوين الباليوإنثروبولوجية والبعثة الأثرية الخزرية لمتحف الأرميتاج الوطني في عام ١٩٦٣م مكرساً لتحقيق هذه المبادئ. وكان من الضروري أيضاً البرهنة على أن صياغة المبادئ ليس لها طبيعة إقليمية محلية وإنما وثائقية ويمكن أن تكون مستقصاة خارج حدود دلتا

الفولغا. واختير وادي التيريك موضوعاً للاستقصاء لأن الاستقصاءات القديمة غير كافية والآثار الخزرية لم تكن حتى الآن مكتشفة وهي نفسها تعدّ الأكثر أهمية لحل المسألة المطروحة.

إن وادي التيريك العريض وفقاً لجميع المصادر التاريخية كان مأهولاً بالخزر وسميت هذه البلاد في القرنين ١٥-١٦م بارسيليا حسب تسميات المؤرخين البيزنطيين ثيوفانس ونقفور فهنا وجد وطن الخزر وهناك أيضاً على ضفة التيريك وقعت المدينة الغنية سيمندير التي دمرها سفياتوسلاف وبالتالي استوطن الخزر هذه المنطقة لا أقل من ٤٠٠ سنة.

إلا أن تحديد التمركز الأكثر دقة لخزر التيريك لاقى جملة من الصعوبات الفيزيائية - الجغرافية الطابع.

بأي اتجاه عريض جرى النهر؟ فالتيريك طاف في السهل العريض غامراً هذا القطاع أو ذاك من السهب. وبالرغم من أن مجرى التيريك قد عزز بالسدود فإن أسافل واديه تنغمر سنوياً حتى الآن. وقد جعلت فيضانات النهر هذه المنطقة غير صالحة للقرى الحضرية وبخاصة في الألف الأولى قبل الميلاد لما عانت المنطقة السهبية من أوراسيا عصر الترطب.

وهذا يعني أن القرى الخزرية كان عليها أن تتوضع في المجرى الأوسط للتيريك في ذلك المكان حيث كثبان النوغاي الرملية تحد وادي النهر من الشمال وتعطي السكان إمكانية عدم الخوف من الفيضان. وعلى أطراف هذه الرمال تقع الآن ستانيتسات (قرى) قوزاق الأعراف الذين كانوا في السابق كرّامين وصيادين ومحاربين مثل خزر القرون الوسطى.

وبين حدود الرمال وغابة أشجار الأوراق العريضة التي تطوق التيريك يمتد شريط السهب بعرض من ٣ إلى ١٠كم وهو القسم الوحيد المأهول من الوادي الآن.

وهكذا تتمازج على الضفة اليسرى للتيريك أربع صفحات /أديمات/ محلية من الأرض: الغابة الكثيفة والسهب الجاف والصحراء الرملية وفي الأسفل مرج تغمره مياه الفيضان مع تشعبات من أجمات القصب.

وبطبيعة الحال بعد ٢٠٠٠ سنة تبدل الترابط بين صفحات /أديمات/ الأرض هذه وسمحت الشواهد الأثرية بتقصي طبيعة التبدلات. وبعد القرن الأول الميلادي وجد على الأرض المحيطة أربع حضارات: السرماثية - الآلانية والقريبة منها بفن تحضير وصناعة الفخار الخزرية والنوغاييّة (النوغاي) والروسية.

والحضارة السرماثية - الآلانية - الخزرية المؤرخة في الألف الأولى الميلادية تظهر في أثرين في المنطقة السهبية أحدهما إلى الأعلى من ستانيتسا (قرية) شيلكوفسكي والآخر عند قرية كوردونوفكا إلى الأسفل من قيزيلیار. وكلا الأثرين موجود على ضفة التيريك العجوز ومحاط بمتاريس من الآجر الساماني (نسبة إلى السامانيين الفرس - المترجم) المنتشر حتى المنحدر الطبيعي وخنادق تعوم حتى حوافها تقريباً بالماء وعلى المخطط تظهر مادة الفخار وأماكن توضعها والقلعة التي عند قرية كوردونوفكا (انظر الشكل التالي) بيضوية الشكل ممتدة على طول السرير /المجرى/ الجاف والفخار الذي في داخلها نوعان:

١- من الغضار الأسود المصنوع على دولاب الخزاف المشوي بصورة سيئة مزخرف بالتويجات مصقول أملس من الخارج والأوعية كبيرة مسطحة القعر.

٢- من الغضار الرمادي الطري المشوي جيداً ومصقول وأملس.

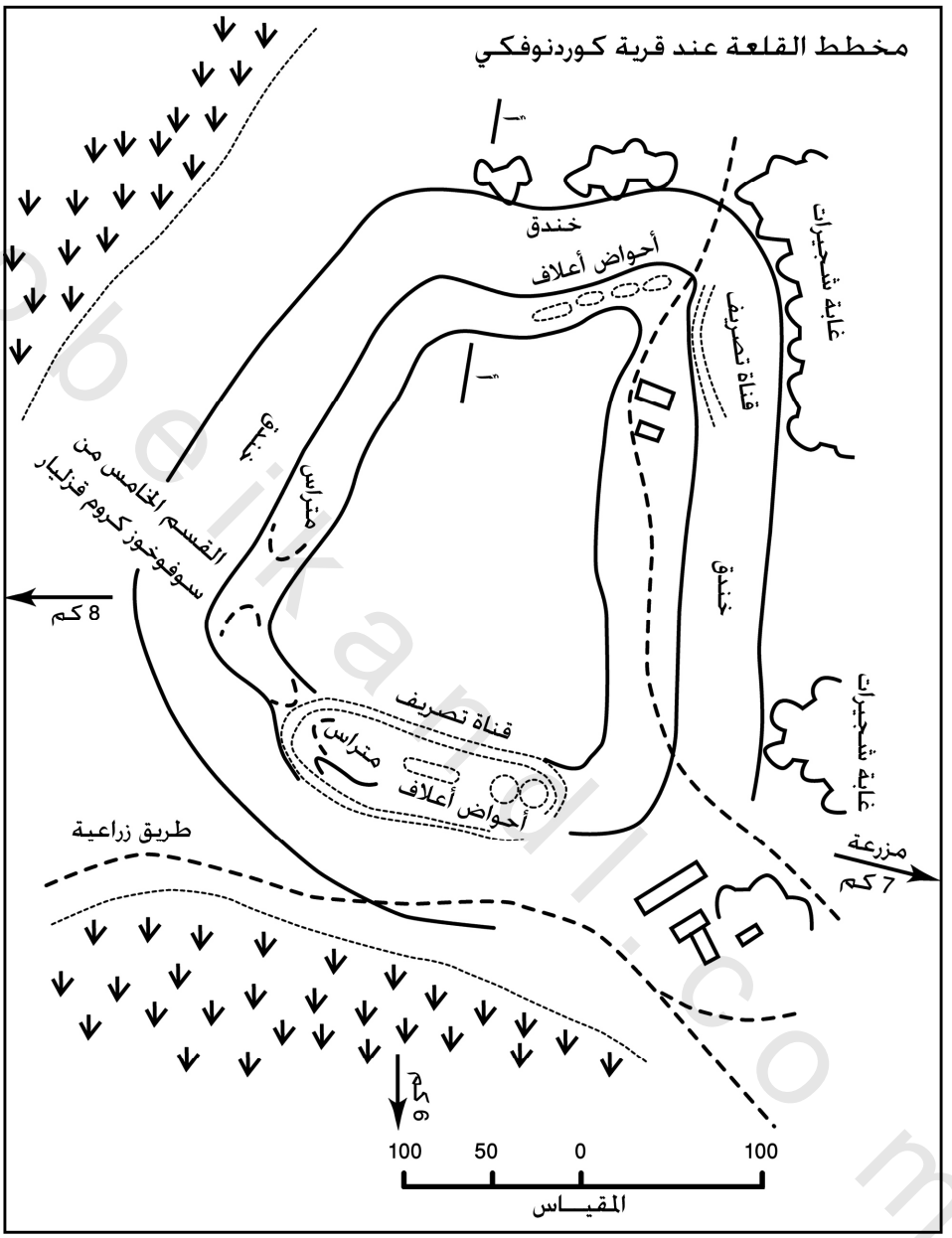

وكلا النوعين موجود بصورة مماثلة في الفخار السرماثي من القرنين ١ و ٢م، والآثار (المدينة القديمة) موجودة في السهل العريض المتشكل من رواسب التيريك في الأقسام العلوية من دلتاه.

أما القلعة التي عند ستانيتسا (قرية) شيلكوفسكي (انظر الشكل التالي) فهي عبارة عن مربع منتظم طول ضلعه ٢٠٠م وفي منتصف كل متراس بوابة عند جهتيها توسعة للأبراج وعلاوة على ذلك في كل ضلع هناك ثمانية أبراج أساسية.

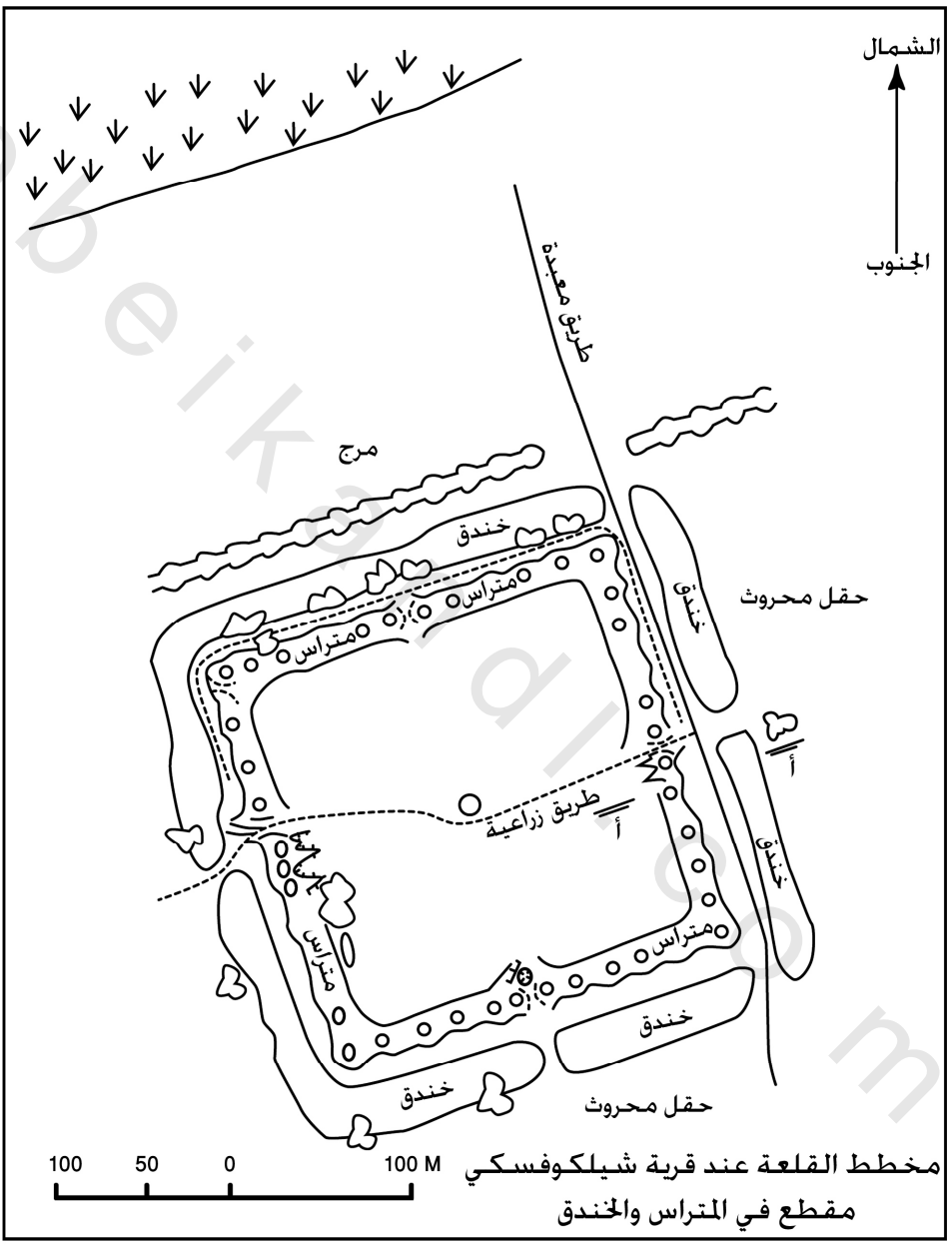

obeikandl.com

والخندق بعرض ٥٠م وعمق ١.٥م يطوق السور من كل الجهات وبما أن ارتفاع المتاريس يراوح من ٥.٥-٦م فتعتبر القلعة منشأة متينة. والفخار في داخل القلعة من الغضار الرمادي محضر بدولاب الخزاف. رقيق الجدران مصقول جزئياً ومشوي بطريقة جيدة جداً والأوعية كبيرة مزخرفة بتويجات الأزهار الملصقة من الخارج وعلى ما يبدو استعملت لتخزين المؤن والمياه. والمثيل الأقرب لهذا الفخار هو فخار الحضارة السالتيكوفية وأنشئت هذه القلعة متأخراً بعد القلعة الموصوفة أعلاه ويتحدث التخطيط عن ذلك، فهي مربع منتظم دون الأخذ بالحسبان خصائص تكوين الأرض بينما القلعة التي عند كوردونوفكا متاريسها لها انحناءات متكررة بحسب الضفة القديمة التي تقوم عليها.

والشيء الأكثر مدعاة للاهتمام هو أن القلعة التي عند كوردونوفكا تقوم على سهل منبسط معرض للفيضانات، وبالتالي يتطابق زمن بنائها مع عهد يباس المنطقة الجافة وهذا يعني من القرن الثاني حتى الرابع الميلاديين عندما خاض الآلانيون الحرب مع الهونيين واحتاجوا إلى القلاع[١]. وفي ذلك العهد كانت أسافل مجرى التيريك قليلة المياه وربما مأهولة بالسكان المحليين ولكن أثناء الترطب الدوري في القرون ٥-١٠م أصبح ذلك غير ممكن وفي ذلك الوقت اختار الخزر سكان وادي التيريك مكان الاستيطان عند تخوم (أطراف) رمال النوغاي حيث نجد آثار قراهم وركاماً هائلاً من الفخار، وعلاوة على الفخار النوغائي المتأخر هناك نوعان من الفخار أشهب - أسمر (من شي الوجه الخارجي) وهو ما تتصف به المقابر الخزرية عند الفولغا. حيث يصادف كلا النوعين معاً وزخرفتهما بدائية إلى حد ما على شكل شريطة أو موجة ومخططين بأشكال التويجات من الخارج والأوعية كبيرة ذات جدران ملساء وقعر مسطح مصنوعة من مادة طرية للغاية سميكة مسامية أكبر من التي في أسافل الفولغا استعملت لتخزين المياه وهذا الأمر لم يكن مطلوباً في دلتا الفولغا.

وتم التنقيب عن ركام من قطع الفخار عند قرى تشيرفلينوي وشيدرينسكي وغريبينسكوي وكارغالينسكوي عند تخوم التلال الرملية وعثر عميقاً في الرمال

١- انتصر الهون على الالان «أنهكوهم بحرب متواصلة» (جوردان) وحققوا النصر النهائي لهم في عام ٣٧٠م وفي عام ٤٦٣م اقتحموا من وراء الفولغا عند القفقاس الشمالي سارغور. واستقر الهون المنتصرون وأقرباؤهم البارسيليون بالقرب من بحر قزوين. وبقايا الهون الممتزجون مع السرماثيين هؤلاء هم الخزر ونحو عام ٥٦٧م خضع الخزر للتركمان (تيوركيوت) ومعهم سوية قاموا بحملة إلى ما وراء القفقاس وكذلك شاركوا في خصوماتهم. وبعد سقوط الخاقانية التيوركية - الغربية أسس الخزر خاقانيتهم محتفظين بالعرش لسلالة آشين الملكية.

عند السلسلة الثانية من الكثبان فقط على فخار نوغائي من العهد المتأخر الوردي اللون يشابهه بشكل ساطع الفخار التتاري من القرن ١٤م.

وفي المكان ذاته عثر في التجريفات الرملية على مدفن، وبالقرب من تشيرفلينوي اكتشف هيكل عظمي موجه إلى الغرب ومستلقٍ على الظهر مع يدين مسبلتين ممدودتين وكان إلى جانبه حطام أوعية رمادية وحمراء اللون. وبالقرب من قرية شيدرينسكوي في حافة جرف عميق في السلسلة الثانية من الكثبان وتحت ركام من التربة الرمادية بارتفاع ٢.٥م عثر على بقايا مدفن - عظام حوض وعظمة قصبة ساق سمحت بتحديد مايلي: إن الجثة دفنت في حفرة بوضع الجلوس والعظام محفوظة بحالة سيئة جداً ومصحوبة بقطع من الفخار اللين، والمدفن الثالث مشابه للمدفنين السابقين وباقٍ بحالة سليمة جزئياً أيضاً ويتكون من جمجمة متجهة نحو الغرب وعظام طويلة قرب الجمجمة وفقرة واحدة وبقايا من الأضلاع وقطع من الفخار الطري مبعثرة حول الجمجمة.

وتجد مدافن من هذا النوع ومثيلاً لها في سلسلة مدافن تيليسكي المكتشفة في تل ستيبان رازين في دلتا الفولغا.

وتستدعي اللقى الأثرية المداخلة التاريخية فالخزر أحفاد الهون المنتصرين والنساء السرماثيات عاشوا في بلاد بارسيللي جنباً إلى جنب مع قبائل البارسيللوف الذين سكنوا مؤخراً مع الخزر في شعب واحد، ووقعت بارسيلليا في السهوب بين التيريك والفولغا. وبطبيعة الحال تختلف هذه القبائل بعضها عن بعض باللغة والدين والطباع وربما بالنموذج الانثروبولوجي، وكان لهم ظروف حياتية متماثلة وبالتالي آنية متماثلة ولذلك من غير الممكن التمييز بينهم من طبيعة الفخار إلا أن مادة الفخار تقدم تواريخ مطلقة تقريبية وبمقارنتها مع مراحل ترطب المنطقة السهبية التي حددناها يمكننا الوصول إلى نتيجتين مهمتين:

فبحسب معطيات الجغرافيين العرب كانت مدينة سيمندير تقع على ضفة التيريك في منطقة قيزيليار[1] «واقعة عند بحيرة (أو شاطئ البحر).... وفي المدينة بساتين وكروم كثيرة... والمدينة هائلة الاتساع ولكن سقوف المنازل والبناء من الخشب والسطوح محدبة /جمالون/.. وبناها كسرى آنوشروان». في القرن ٦م.

فأي من الآثار التي وجدناها يمكن أن يتطابق مع هذا الوصف؟ فقط الآثار التي عند ستانيتسا (قرية) شيلكوفسكي. ويمكن أن يكون فيضان التيريك هو ما تراءى للرحالة العربي بحيرة. والكروم كثيرة هناك حتى الآن والبيوت الخشبية لا يمكن أن تبقى وسلمت فقط القلعة السامانية من عاديات الزمن التي تعترض سبيل العرب إلى خازاريا ومن هنا التسمية سامان - دار - البوابة السامانية.

١- ف. ف. مينورسكي في كتاب «النفي إلى حدود العالم» يضع سيمندير في الزاوية الشمالية - الشرقية للقفقاس جنوبي ماخاتشكالا (قلعة ماخاتش - المترجم) ولكننا نعتبر مركزتنا أكثر إقناعاً بكثير - م. إ. ارتامونوف.

وفي النهاية، إن تخطيط المعابد والقلاع المربع المنتظم معروف في الشرق الأدنى منذ ألفي عام قبل الميلاد. ويسمح أخذ الظروف الفيزيائية - الجغرافية بالحسبان بالتخلي عن تمركز سيمندير على شاطئ قزوين الذي كان في ذلك الوقت أخفض بأربعة أمتار من الآن. وبالتالي امتد الشاطئ إلى أبعد بكثير نحو الشرق فلو وُضِعت هناك فلا يمكن أن توجد «على بعد فرسخين[1] من سريرا» وهذا يعني داغستان الجبلية كما أشار المصدر إلى ذلك.

والنتيجة الثانية: إن ازدهار الشعب الخزري داخل في الإطار الزمني لمرحلة ترطب المنطقة الجافة والآثار الخزرية المكتشفة عند الهضاب على ضفاف الأنهار تدل على حياة حضرية وخوف من خطر الفيضانات. ومن البديهي أن الخزر استخدموا السهب لرعي الماشية كما استخدمه مثلهم قوزاق الأعراف والتتار الاستراخانيون فيما بعد ولهذا لم يكن من الضروري لهم أن يصيروا رحلاً. وكان الرحل الحقيقيون هم تركمان قبيلة آشين الخانية أما السكان المدنيون التجار فهم اليهود الذين يشكلون الأوساط الحاكمة. ولكن الخزر أنفسهم كانوا مزارعين وبساتنة وصيادي أسماك وكما هم (ومأخوذين بذاتهم) عاشوا بعد هزيمة دولتهم السياسية يزرعوا كرومهم ويصيدون السمك ويرعون الماشية مثلما كانوا في الماضي.

ولكن يباس المنطقة الجافة المرتبط بارتفاع مستوى قزوين إلى المنسوب المطلق ناقص ٢٠م حرمهم من إمكانية العيش بنمط الحياة المألوف. وبعد القرن ١٣م لا تصادف تسمية الخزر في المصادر. والمرة الأخيرة التي ذكر فيها الخزر كانت من قبل بلانو كاربين الذي التقاهم في عام ١٢٤٦م (بلانو كاربين - راهب إيطالي مبشر في منطقة الخزر في القرن ١٣ المترجم).

واحتل السهبيون رحل النوغاي أتباع خانات القبيلة الذهبية ضفاف التيريك - إن فناء الشعب لا يعني موت كل الناس الذين يشكلونه، فالقومية (الإثنوس) ليست المجموع الحسابي للتعداد الإنساني وإنما هي المجموع الجبري للصلات بين الناس بالنسبة لطبيعة محددة (مع بعض التسامح) من العلاقات المتبادلة مع الوسط المحيط - الجيران والطبيعة.

وأن هذا النظام ديناميكي (سريع التطور) ولتشويهه يكفي الإخلال بأي من الظروف المعدودة. وفي القرن الثالث عشر لم يكن عند الخزر إمكانية كبيرة للعيش بنمط الحياة المألوف فتفرقوا ودخل خزر الفولغا في الإسلام واندمجوا مع تتار القبيلة الذهبية والزعماء اليهود انقرضوا من دون أثر ومن المحتمل أنهم هرباً من إبادة اليهود اتجهوا إلى القفقاس إلى عند الذين من دينهم نفسه - يهود الجبال وعاشوا معهم. ففي القرون الوسطى كان الإيمان الديني يحدد مصير الناس وهذا يعني أن خزر التيريك - المسيحيين - كان عليهم البحث عمن هم من دينهم نفسه ومثل هذا كان البرودنيكيون الذين عاشوا عند الدون.

٢- الفرسخ يعادل ٣٢ ستاديا يونانية قديمة (ستاديا = ٠.١٨٥٢٠٧)، ٣٢×٠.١٨٥٢٠٧=٥.٩٢٦٦١كم.

البرودنيكيون: - هم شعب من أصل هجين تكلم اللغة الروسية ودان بالديانة المسيحية الأرثوذكسية وحتى عام ١١١٧م عاشوا سويةً مع «الفيجتسيون - البيض» سكان ساركيلي وبعد ذلك كونهم بيلوفيجتسيين مضطهدين من البولوفيين عادوا إلى روسيا.

وظهر أن البرودنيكيين أسياد لهم السلطة المطلقة على حوض الدون الذي دافعوا عنه بنجاح ضد البولوفيين، وعلى ما يبدو فإن جزءاً من البرودنيكيين كانوا من أصل خزري، وإلى أبناء قبائلهم الذين من دينهم نفسه فقط استطاع خزر التيريك أن يتوجهوا إلى الدون الغزير المياه الذي يجري من المنطقة الرطبة، وجلبوا معهم معداتهم وتجهيزاتهم المألوفة عندهم - الفخار السامانى الذي بنيت به آثار قرى الفيجيين البيض الروس - وساقوا قطعان أغنامهم التي كانت طعامهم وحيوانات قرابينهم.

ودفعت العداوة مع البولوفيين البرودنيكيين إلى التحالف مع المغول. وفي عام ١٢٢٣م ساعدوا السوباتيين لتحطيم الأمراء الروس ومن ذلك الوقت صاروا أتباعاً موالين للقبيلة الذهبية وفي القرن السادس عشر الميلادي سموهم أيضاً بالتوركمانية - قوزاق.

وإن تعاظم القوزاق وانتشارهم نحو الشرق مرتبط أيضاً بالظواهر المناخية ولكن قد يبدو هذا غريباً للوهلة الأولى، فقد ساعدهم اليباس المتواصل للسهوب.

ولكن إذا تذكرنا أن البرودنيكيين والقوزاقيين الأعداء الرئيسيين للخزر كانوا هم رحل السهوب - البولوفيين والنوغاي[1].

وقوض يباس السهوب فوق الحد المألوف عندهم اقتصادهم الذي يقوم على تربية الماشية مثلما خرب اقتصاد الخزر من قبل. ونتيجة لهذا اليباس ضعف الرحل أما قوى أعدائهم فقد بقيت ثابتة وصار التفوق لهم وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي استولى القوزاق على وادي التيريك.

وتمثل «أطلال الجدران الثلاثة» القلعة التي لم يكتمل بناؤها شمالَ قرية كراينوفكي على بعد ٥كم من شاطئ البحر المرحلة التترية فهي تؤرخ بالخزفيات الفخارية المشوية جيداً المسطحة القعر المزخرفة بالأخاديد والتويجات. والقسم الأكبر من القطع من الغضار الأحمر أما القسم الأصفر فمن الغضار الرمادي والشبيه الأقرب بها هو الفخار الاوردينسكي في الفترة من القرن ١٤-١٧م ولكن

١- في عام ١٥٣٨م رداً على شكوى الميرزا «لقب حمله الأشراف الإقطاعيون في الدول التترية في القرن ١٥م وأصل الكلمة فارسي - المترجم» النوغاي، كتبوا من موسكو «في الحقول /الميدان/ يجول القوزاق الكثيرون: التازاتيون والازوفيون والكريميون والقوزاق الآخرون المدللون، أما قوزاقنا الاوكرانيون المختلطون معهم فإنهم يجولون وهؤلاء الناس كما ينهبونكم كذلك ينهبوننا».
وفي عام ١٥٤٩م كتب الأمير النوغائي يوسف إلى إيفان الرهيب - إن القوزاق الشماليين الذين يقيمون عند الدون نهبوا التجار التتار. وكانت الحرب المتواصلة مع السهبيين من اختصاص القوزاق الذين أخذوا على عاتقهم الدور الذي قام به الخزر من قبلهم.

هذا النموذج من الفخار شاع نحو ٥٠٠ عام وكان منتشراً بشكل واسع للغاية حتى معسكر ديمتري الثاني بالقرب من توشينا لذلك يجب البحث عن الطرق الأخرى الأكثر دقة للتأريخ. وسار في هذه الطريق ي. إي كروبنوف الذي وصف لأول مرة هذه الأطلال المؤرخة من قبله بالقرنين ١٦-١٧م. وهذا التاريخ لا يمكن الأخذ به للأسباب التالية:

- تبدو الخاصية الأساسية للقلعة بوجود كمية هائلة من سرطانات المياه المالحة Cardium edule, Didachna trigonoides pallas, Dressnsia rostriformis, Dressensia Caspia. في المتاريس. والعلامة المطلقة لقمة المتاريس عند مدخل قيزيليار ناقص ١٩.٣م وبالتالي ارتفع مستوى بحر قزوين قليلاً فوق المتاريس المبنية أو بتعبير أدق حدها مشكلاً بذلك ظروفاً مثالية للرخويات.

واتخذ ي. إي كروبونوف عند إشرافه على أعمال ب. أ. برافوسلافييف مستوى قزوين أثناء طغيانه المسمى «سارينسكوي» في عام ١٧٤٢-١٧.٤م ولكن هذه الفرضية فندها ل. س. بيرغوم الذي برهن أن المياه ارتفعت في عام ١٧٤٢م فقط إلى العلامة المطلقة ناقص ٢٣.٤م وبالتالي هذا الطغيان ليس له أي صلة بمتاريس «أطلال الجدران الثلاثة» ولم يلغ تاريخ الأطلال الذي قدره ي. إي كروبنوف فحسب، بل الظن بأننا نشاهد هنا واحداً من محابس دولة موسكو. ويجب البحث عن تاريخ بناء المتاريس بوقت أبكر قليلاً.

والقلعة ذاتها تحمل طابع عدم الاكتمال فالمقام منها هو فقط المتراس الجنوبي والشرقي والشمالي والخنادق غير محفورة (استخدم المؤلف كلمة منبوشة - المترجم). وكثيراً ما تصادف قطع الفخار من الناحية الخارجية للقلعة أكثر من داخلها وعلى ما يبدو هذه بقايا أواني بناة المتاريس وسماكة الطبقة الحضارية داخل القلعة تصل إلى ٤٥سم وقد اكتشفها ي. إي. كروبنوف وتتميز بوجود كسرات الآجر والخبث والفحم وقطع الفخار وعظام السمك وبكمية ضئيلة من عظام حيوانات دواجن. ويشتمل تشابه فخار «أطلال الجدران الثلاثة» مع الفخار السلافي المتأخر على مراحل مبكرة أكثر كالفخار السرماثي على سبيل المثال.

ولا يمكن الموافقة مع ي. إي. كروبنوف على أن عدم وجود الجدار الرابع الشمالي يعوض عنه مجرى نهر التيريك الذي جرى حسب أقوال السكان القدماء في مكان الطريق الحالي من قرية الكسندروفسكي على بحر قزوين ولا يوجد هناك أثر لسرير النهر وحتى لو كان هنا مجرى للتيريك ففي المجرى الأسفل تنخفض سرعة التيار لدرجة أنه يمكن اقتحام النهر من دون أيّ صعوبات، وعلاوة على ذلك فإن المتاريس لا تصل إلى الطريق وهذا يعني أن المجرى القديم الضحل يقع على بعد ٢٥م مما يستبعد أيّ أهمية دفاعية للنهر غير العميق... والقياس الذي اعتمد عليه تأكيد ي. إي. كروبنوف - أطلال اوندورسكوي غير مقنع لأن قسماً من المتراس وفقاً للمخطط مدمر بمباني قرية اوندورا. والمعسكر القوزاقي الذي وصفه إي. بوبكو الواقع عند مصب أحد فروع

التيريك والمسمى «الجدران الثلاثة» كذلك ليس له هنا أيّ علاقة لأنه كان بشكل مثلث أما أثرنا فله شكل شبه منحرف.

وانطلاقاً مما ذكر يجب الاعتراف بأن القلعة بنيت قبل طغيان البحر في نهاية القرن ١٣م والسكان المحليون اقتاتوا بالسمك عن طيب خاطر صنعوا الأواني بدولاب الخزاف بشكل أكثر مما فعل ذلك خزر الفولغا في القرون ٦-١٠م.

وبالتالي كانت المتاريس مبنية قبيل نهاية القرن ١٣م، ولكن في المرحلة التتارية وهذا يعني بعد عام ١٢٤١م وعلى ما يبدو أن هذا هو أحد مراكز حراسة القبيلة الذهبية التي أقيمت ضد إيلخانات إيران في أواسط القرن ١٣م. ومن جراء ذلك انتقلت الأعمال الحربية بسرعة إلى ما وراء القفقاس وأصبحت القلعة غير كاملة البناء وسرعان ما أغرقها البحر وصارت المروج في الأماكن المنخفضة أيضاً غير ملائمة للترحال بسبب ارتفاع المياه.

ويصادف فخار القرون ١٣-١٥م فقط في الرمال عند المجرى الأوسط للتيريك وقبيل القرن ١٦م أثناء تقهقر بحر قزوين صارت أسافل مجرى التيريك صالحة للاستيطان وفي هذا الوقت استوطنت تلك المناطق بالقوزاق الروس وللإشراف على الوادي أنشئت قلعة التيريك التي نقلت أكثر من مرة من مكان إلى مكان ومن أحد مواقعها الموقع شمال قرية نوفي بيريوزياك (بيريوزياك الجديدة) المؤرخة بناءً على التخطيط ليس قبل نهاية القرن ١٧م. ووقعت في وسط السهول ليس بعيداً عن مجرى التيريك. ومخطط القلعة على شكل نجمة مثمنة الرؤوس مع ساحات واسعة على نتوءات - بسطات للمدافع (مساند للمدافع بالمصطلحات العسكرية - المترجم).

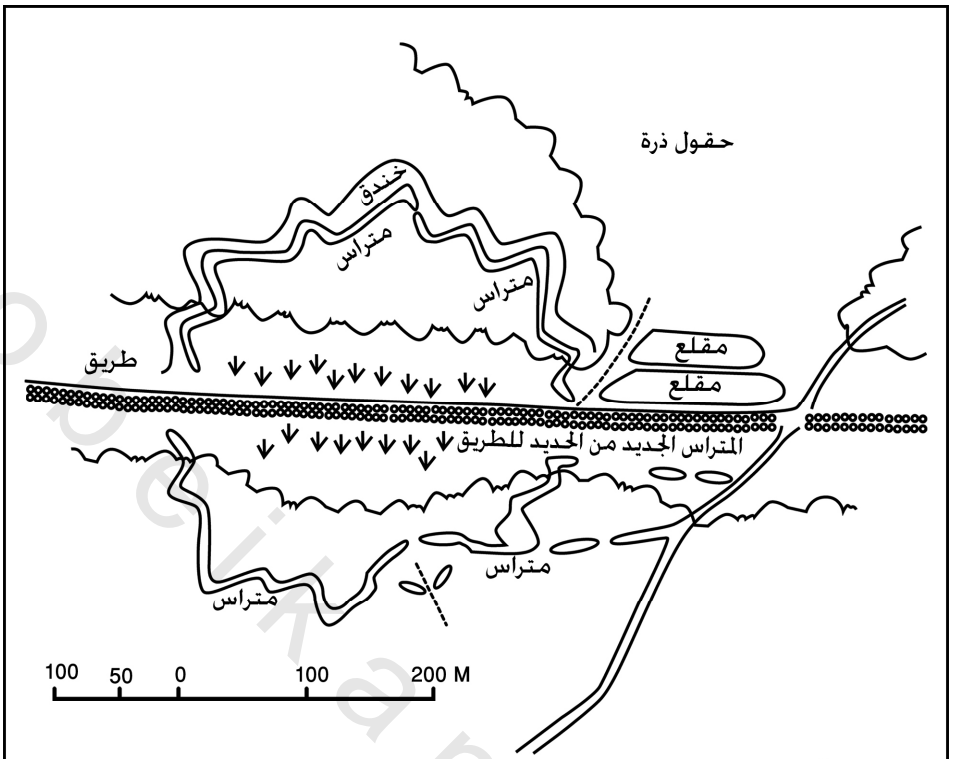

مخطط آثار القلعة عند مزرعة خارليف

والأثر الثاني من هذا النموذج بالقرب من قرية شيلكوفسكي واقع في غابة كثيفة على ضفة التيريك نفسه وصار معروفاً فقط لأن الطريق المعبدة قطعت قسمه المركزي والفخار الذي عثر عليه في المجروفات عند حافة الطريق قليل التعبير /أي قليل المعالم التي تفصح عنه/ ويمكن القول أنه مشابه للفخار التتاري في الكثبان ودلتا الفولغا وعلى الأرجح أنه من القرنين ١٧-١٨م.

وفي مركز القلعة هناك حصن جدرانه مخططة بشكل خط منكسر له ١٥ بروزاً ومتعرج بزوايا حادة، البوابة المتجهة نحو الجنوب الشرقي محمية بمتراس إضافي غير متصل مع سور الحصن، ويصل ارتفاع المتاريس إلى ٤م وعرض الخندق ٨م وعمقه غير محدد لأنه في وقت زيارة الأثر كان مغموراً بفيضان التيريك ولهذا السبب أيضاً لم يُستقصَ القسم الداخلي للقلعة التي قطرها يساوي ٣٠٠م.

وساحة الأطلال محمية من الغرب بمتراس عالٍ من جذوع الصنوبر والخندق ما بين المتراسين مملوء جزئياً بالماء. وتمتد هذه المنشأة من التيريك

حتى الكثبان الرملية وهذا يعني لمسافة ٤كم وتقطع كامل وادي النهر وإلى الجنوب من القلعة وعلى امتداد ضفة التيريك يمتد متراس أقل ارتفاعاً ينضم إلى المتراس الشرقي المشوه بالطريق المشقوق فيه. وفي القسم المركزي من الأطلال يمتد من المتراس الشرقي متراس إضافي مزدوج إلى الحصن وإلى الجنوب قليلاً من المتراس الشرقي مرسوم فرع إلى الشرق ينتهي إلى سويحة يمكن أن تكون أساساً لبرج للحراسة.

وباستثناء القسم الجنوبي - الغربي الذي تنمو فيه غابة كثيفة فإن الأثر مشغول بحقول الذرة وكروم مزرعة خاركيف التي نشأت في منتصف القرن ٢٠م.

ودمرت مباني المزرعة امتداد المتراس الشرقي بين التيريك والكثبان ولذلك مخطط الطرف الشرقي للآثار غير واضح زد على ذلك إذا عممنا مخطط المتراس الشرقي إلى الكثبان فإن نهاية هذا الخط سوف تتلاشى في قرية شيكلوفسكي حيث دمرت آثار المباني القديمة منذ زمن بعيد أثناء بناء المباني الحديثة ولذلك يمكن القيام باستنتاج مسبق: وهو أن الأثر الذي اكتشفته البعثة مرتبط بالمستوطنات عند أطراف الرمال ويعتبر مخفراً أمامياً متقدماً إلى ضفة التيريك في فترة تجفاف المنطلقة السهبية وهذا يعني في القرن ١٧م. وسمح فحص ضفاف التيريك إلى أعلى وأسفل هذه القلعة على امتداد ٨٠كم بتقرير أنه لا يوجد هنا منشآت مشابهة أكثر. وفي عام ١٧٣٤م أنشئت قيزيليار وقبيل ذلك الوقت حل قوزاق الأعراف محل الخزر أما النوغاي والكالميك - فمحل القبائل البلغارية القديمة والعلاقة بين الحضري والسهبي ظلت ثابتة كالعلاقة بين الأديم السهبي والأديم عند النهر.

وأكدت الأبحاث المنفذة مسألة وجود ارتباط وظيفي بين أديم /صفحة/ الأرض والانتشار المساحي للشعوب.

وانطلاقاً من هذا المبدأ فقط تسنى العثور على حضارة الخزر عند الفولغا والتيريك. وبالعكس: وفقاً لانتشار الشعوب القديمة ذات الأشكال المختلفة للاقتصاد والحياة وهذا يعني استثمارها لمختلف الظروف الطبيعية حددت طبيعة الظروف المناخية والفيزيائية - الجغرافية للمنطقة المدروسة التي يعتبر أهمها تناوب

مراحل الترطب واليباس ومدد استمرارها. والقياس الأدق للأخيرة ممكن فقط باستخدام معطيات التاريخ ولكن مع الأخذ بالحسبان بعض الخصائص المنهجية.

ونستنتج مما عرض أن تشابه ما تتبعناه في الوهاد عند بحر قزوين يمكن أن تكتشف في أيّ منطقة مأهولة من الأرض مع أن لكل منطقة أهلها بالطبع.

obeikandl.com

اكتشاف خازاريا

(دراسة تاريخية - جغرافية)

إن أفكار المؤلف ومشاعره التي نشأت خلال خمس سنوات من التجوال في خازاريا، مثلما هي في المكان كذلك هي في الزمان، أو سيرة حياة فكرة علمية.

كتبت في عام ١٩٦٥م أو بعد ١٠٠٠ عام من سقوط الخاقانية الخزرية.

مهداة إلى أستاذي العزيز والصديق ميخائيل ايلاريونوفيتش ارتامونوف

مقدمة

إن القارئ المثقف تاريخياً يعرف أن الخزريين كانوا شعباً جباراً عاش في أسافل مجرى نهر الفولغا ودان باليهودية. وفي عام ٩٦٥م انتصر عليه سيفاتوسلاف إيغوروفتش أمير كييف. والقارئ - مؤرخ أو عالم في الآثار يطرح كثيراً من الأسئلة: ما أصل الخزر، وما اللغة التي تكلموا بها، لمَ لم يسلم أحفادهم، وبأيّ طريقة استطاعوا أن يدينوا باليهودية، ومتى كانت ديناً لهم على الرغم من نهي قوانينهم الخاصة عن دخول الغرباء في اليهودية، والأكثر والأهم هو كيف تعامل الشعب الخزري نفسه بعضه مع بعض ومع البلاد التي سكنها، والمملكة الخزرية الهائلة التي شملت تقريباً كل جنوب شرق أوروبا وسكنها كثير من الشعوب؟

وكان في عداد رعايا الملك الخزري البلغار الكامسك، والبورتاسيون، والسوفاريون والموردوف - الآرزيون، والتشرميسيون، والفياتشيون، والشماليون وسلاف - المروج (الصقالبة) ومن الشرق جاورت هذه المملكة خوارزم، أي إنها سيطرت على مانغيشلاك وأوسيتيا أي على كل سهوب الأورال الجنوبي.

ومن الجنوب كانت دربنت المدينة الحدودية المشهورة بسورها الذي فصل القفقاس عن الممتلكات الخزرية ومن الغرب كل القفقاس الشمالي، والكروم السهبية وسهوب البحر السود حتى نهر الدينستر. وخضعت الكاربات لملك الخزر بالرغم من أن سكانها قطعاً ليسوا خزراً والآلان، والكوسيغ (الشركس) والبيتشينيغ والمجريين الذين لم ينزحوا إلى أرضهم الحالية.

ولكن حدود الدولة لم تتطابق أبداً مع حدود توزع هذا الشعب الذي أسس هذه الدولة فطوراً وجد على نطاق ضيق وطوراً على نطاق واسع وفقاً للنجاحات أو الإخفاقات الحربية. فمحيط الأرض الذي رسمناه كان حدود المملكة أما أين عاش الشعب الخزري نفسه - فالمصادر الكتابية لا تشير إلى ذلك.

والأكثر من ذلك إن القلعة التي نقب عنها واهتدى إليها البروفيسور م. إ. ارتامونوف عند الدون التي تطابقت مع ساركيل إحدى القلاع الخزرية المذكورة في الحوليات الروسية وفي المدونات التاريخية البيزنطية ليس لها البقايا الأثرية التي يمكن إرجاعها مباشرة إلى الخزر. وفي الزمن ما قبل الخزري كان هناك قرية الآنية وبعد الخزر المدينة الروسية فيجا البيضاء أما في وقت ازدهار السطوة الخزرية - فكانت حامية القلعة المؤلفة من ٣٠٠ من المقاتلين المرتزقة تبدل سنوياً وتعود القبور التي حول القلعة إلى الرحل - الغُزّ أو البيتشينيغ الذين خدموا كما يبدوا في القوات الخزرية. وفي الأماكن الأخرى حيث زار علماء الآثار فإن آثار الزمن الخزري تعود إلى أتباع رعايا الملك الخزري وليس إلى الخزر ذاتهم.

ولذلك كل ما يعرفه المؤرخون يمت إلى الدولة الخزرية عامة ولكن الأرض التي عاش عليها الشعب الخزري لا تتطابق على الإطلاق مع كامل حدود إمبراطورية الخاقانية[1] الخزرية.

سبق أن عرفت تسمية «الخزر» من المؤرخ الروسي الأول مؤلف «قصة السنين الغابرة» ومنذ ذلك الوقت ذكرت في المؤلفات التاريخية الروسية أكثر من مرة. إلا أنه من هم هؤلاء الخزر وما هي خازاريا - لا أحد عرف ذلك بصورة بينة، لأنه، خلافاً للشعوب الأخرى التي لها أسلاف وأخلاف فهؤلاء عند الخزر ليسوا موجودين ولم يكتشف غيرهم.

وعلاوة على ذلك إن القوم الذين سكنوا خلال ألف عام كاملة تقريباً في أرضٍ كهذه مدروسة جيداً ما بين نهري الفولغا والدون ونهر التيريك التي وفقاً لجميع المصادر الكتابية حلت فيها الخاقانية الخزرية التي لسبب ما لم تترك بعدها

١- خاقان أوكاغان - لقب الملك عند القبائل التيوركية - المغولية الرحل منذ القرن ٣م.

أيّ شواهد أثرية. فالخزر ككل الناس الآخرين أكلوا وشربوا وبالطبع كانت هناك أوعية، فأين هي الكسارة (القِطع) - المادة التي تعتبر دوماً أولى اللقى الأثرية لعلماء الآثار؟ كان للخزر مدينتان ضخمتان إيتيل على الفولغا وسيمندير على التيريك فأين آثارهما؟

الخزر ماتوا فأين اختفت قبورهم؟ الخزر تكاثروا فمع من امتزج أحفادهم؟ وأخيراً أين توضعت قرى الخزر تلك «القرى والحقول» ذاتها التي بحسب تعبير أ. س. بوشكين «قضى عليها أمير كييف بالسيوف والحرائق» لقد ظل ذلك لأمد طويل مجهولاً.

ويعثر على الأرض التي عاش عليها أياً كان شعباً من الشعوب دون صعوبة وتحصل أحياناً مناقشات حول تحديد حدود مناطق استيطان وزمن استيطان هذه أو تلك من الأراضي، ولكن هذه التفاصيل هي ذاتها مشكلات أيضاً ولذلك تصطدم استعادة تاريخ الشعوب بصعوبات مختلفة ولا يمكن التغلب عليها دائماً، وعند حل المسألة الخزرية حصل ذلك على العكس تماماً.

وتركت الشعوب المجاورة كمية هائلة من المعلومات عن الخزريين تتفق أحياناً وتتعارض مع بعضها البعض أحياناً أخرى. فاليونان البيزنطيون تحالفوا مع الخزريين وأرسلوا إليهم المبشرين الأرثوذكس، والفرس والعرب تحاربوا مع الخزريين ولكن التجار المسلمين كان لهم أحياء خاصة في العواصم الخزرية، والروس من كييف وتشيرنوغوف دفعوا الإتاوة للخزر بسيوف ذات حدين وجمعت بالقوة وفي عام ٩٦٥م جاءت نهاية خازاريا كلياً وقطعت بالسيوف ذاتها الرؤوس الخزرية.

وعن الخزر كتب الأرمن والجيورجيون الذين جربوا اعتداءاتهم. ولكن، ربما كانت الوثيقة التي تقدم المعلومات الأكثر استفاضة عن الشعب الخزري هي رسالة الملك الخزري يوسف إلى مستشار الخليفة عبد الرحمن الثالث في أسبانيا الحاخام حسداي بن شفروت المكتوبة في منتصف القرن العاشر الميلادي.

وعلى أساس هذه الوثائق الكثيرة كتب أستاذي وصديقي البروفسور ميخائيل ايلاريونوفتش ارتامونوف عمله الأساسي «تاريخ الخزر» ولكن جغرافية هذه البلاد ظلت كما كانت في الماضي بحالة بدائية. وبهذا الشكل ازداد اختلال التناسب الغريب هذا سوءاً فنحن نستطيع بسهولة أن نطالع الانتصارات التي حققها الخزر والهزائم التي لحقت بهم. ولكن أين عاشوا وكيف كانت حياتهم وثقافتهم فليس عندنا أي فكرة.

وكتب أحد متنوري القرن ١٨م الروس ن. إي. بلوتين «عند أي خطوة... يصادف المؤرخ الذي لا يمتلك ناصية الجغرافيا طعناً» و «مما لا جدال فيه أن التاريخ والجغرافيا بالتبادل بعضها مع بعض تضع مرجعاً وهذا يعني أن الواحد يستجلي غموض نقص الآخر ومستكمله». وهذا بديهي بالنسبة للتاريخ السياسي، ولذلك لكي يتم استيضاح سير هذه أو تلك من المعارك يجب أحياناً الأخذ بالحسبان التفصيلات الثانوية حقاً.

فمثلاً: تكوين الأرض والفصل والوقت من السنة (لأن الحال معروفة عندما توقف الأوحال التي يصعب المرور فيها الأنساق المهاجمة) وانعدام مصادر المياه يجبر على تبديل المواضع، ووجود التلال أو المسيلات يحول دون تشكيل القوات (أخذ الترتيب القتالي المطلوب - المترجم) وتعتبر كل المنطقة التي تهاجم عبرها القوات أو تنسحب الأكثر أهمية أيضاً. ومعرفة خرائط الأرض قليلاً ما تكفي فإذا كانت الأرض صحراء أو وديان أنهار مغمورة بالمياه فالخريطة لا تحدد طبيعتها الحقيقية أما على الأرض المدروسة /المتصفحة/ من زاوية النظر المعينة التي تهمنا فتلقي العين نظرة على جميع التفاصيل التي فيها. وبعد ذلك تحدد صفحة الأرض دوماً شكل وأسلوب الاقتصاد.

وكانت هناك مناقشات مطولة حول. هل كان الخزر رحلاً أو مزارعين، فهل يمكن حل ذلك إذا بقي غير معروف أين كانت تقع قراهم، في السهوب الجافة المحيطة بمجرى نهر الفولغا الأسفل أو في الوديان النهرية؟.

ولكن عند حل هذه المسألة توجب الأخذ بالحسبان أنه على امتداد ألفي عام لم تبق صفحة الأرض من دون تبدل، وهناك أسباب عديدة أيضاً لهذه الظاهرة، وكذلك محاولات تحديدها وأحد هذه الأسباب واضح - وهو تبدل طبيعة الترطب وبالتالي انتقال خط الشاطئ شمال قزوين حيث تحولت اليابسة بسلاسة إلى بحر ضحل، وعلى قدم المساواة يتحول السهب في مرحلة اليباس إلى صحراء رملية ذات هضاب عالية ووهاد عميقة من المجروفات. أما في المراحل الرطبة فتنمو عليها أعشاب السهوب وأجمات الأثل متحولة إلى جنة للرعاة وأغنامهم. وإن تناسب القوى بين السهبيين وسكان الوديان النهرية تبدل وانعكس بصورة ملموسة على تاريخ الفولغا الأسفل.

وأيضاً - من المعلوم من كتابات الرحالة أن خازاريا تاجرت بنشاط مع فارس وخوارزم والإمبراطورية البيزنطية في الجنوب ومع الروس وبلغاريا العظمى وبيرم العظمى في الشمال. ولكن كيف مر التجار الفرس من الجنوب إلى الشمال الذين بادلوا الفضة بالفرو الثمين؟ هل مضوا عبر آرال أو مخروا مياه القزوين العاصفة لكي يتقدموا في الفولغا صعوداً؟

وفي كلتا الحالتين يوجد «مع» و «ضد» نعم ليس واضحاً هل تحولت الطرق خلال السنين الطويلة من وجود الخاقانية الخزرية؟ في سني عظمتها وفي سني انحلالها المتأخر؟ وأين كانت تقع نقاط إعادة الشحن ومدينتا إيتيل و سيمندير العامرتان اللتان استراح فيهما التجار والرحالة في الحدائق الخضراء وتزودوا بالمؤن للنصف الثاني من الطريق الشاقة؟

وأخيراً، لماذا الروس الشجعان بقواربهم الخفيفة لم يمسوا خازاريا قبل بداية القرن العاشر الميلادي ولم يشقوا عباب أمواج القزوين الخضراء؟ ألم يظهروا مبكراً بمئة سنة في مياه البحرين الأسود شمالاً والأبيض المتوسط، وكيف حدث في القرن ١٣م عندما شاهد الراهب الإيطالي بلانو كاربين خازار صارت خازاريا أرضاً غير معروفة من أحد؟ ولكن حسبنا أنا رسمنا دائرة الأسئلة التي

لا يمكن أن يجيب عنها التاريخ بصورة مستقلة فاسحاً بذلك المجال للجغرافية التاريخية.

وبالرغم من أن المراجع في التاريخ الخزري كانت معروفة منذ زمن بعيد ودرست بدقة للغاية، فإن آراء العلماء حول ثقافتهم ولغتهم وأرضهم ونمط حياتهم لم تكن مجتمعة وصيغت وجهات النظر الأخيرة /النهائية/ في أوساط القرن التاسع عشر الميلادي من قبل المستشرق المشهور ف. ف. غريفورييف ومعاصرنا (أي المؤلف) الأكاديمي ب. أ. ريباكوف.

والنظرية الأولى أعرب عنها في عام ١٨٣٤م انطلاقاً من أخبار المصادر العربية من القرون ٨-١٠م التي اتفقت مع نظام الحياة والعادات المرعية التاريخية التي تصور الخاقانية الخزرية بهيئة مثالية «كان الشعب الخزري في القرون الوسطى ظاهرة غير عادية ومحاطاً بقبائل همجية ومترحلة، وتفوق على كل البلدان المثقفة: حكم منظم وتجارة واسعة مزدهرة وقوات دائمة، ولما عمّت الفوضى والتعصب والجهل العميق تنافس بعضهم مع بعض على السيادة على أوروبا الغربية، اشتهرت الدولة الخزرية بالعدالة والتسامح وتوافد إليها الهون من كل حدب وصوب من أجل الإيمان، وكالشهاب المنير سطعت على أفق أوروبا المظلم وانطفأت دون أن تترك أيّ آثار عن وجودها» وانعدام «آثار الوجود» حمل في الحقيقة على الشك في استنتاجات ف. ف. غريغورييف.

والمرة الأخيرة التي ذكر فيها الخزر كانت بين الشعوب التي أخضعها الخان باتي. وهذا العصر معروف جيداً ليس فقط من قبل التجار العرب والمؤرخين الروس بل عند بعثات المبشرين الإيطاليين الشديدي الملاحظة المثقفين الذين وصفوا من وجهات نظر مختلفة طبيعة وسكان سهوب بحر قزوين بمن فيهم الخزر أيضاً. ولكنهم دوماً تجنبوا بطريقة ما السؤال عن الأرض الخزرية التي يجب أن تكون قد بقيت عليها آثار المدنية المادية وهذا لا يكفي فالتطور الثقافي يرتبط دوماً بالكتابة، وكان عند جميع جيران الخزر - اليونان والأرمن والفرس والعرب والروس مؤلفات متطورة أما عن الخزر فقد بقيت ثلاث رسائل مكتوبة باللغة العبرية.

وهكذا هل كان عند الخزر حكم منظم لو اتضح أن حملة واحدة من أمير روسي كانت كافية للسحق الكامل لدولة عظمى؟ وإلى أين استطاع أن يختفي شعب تمتع بخيرات التجارة وامتلك قوات دائمة؟ كلا فهنا شيء ما ليس هكذا!

ووجهة نظر أ. ب. ريباكوف على طرفي نقيض من ذلك فهو يسمي خازاريا «دولة شبه مترحلة غير كبيرة» «طفيلية الطابع» تعيش على حساب الترانزيت (تجارة المرور - المترجم) «تتمتع بخيرات موقعها بصورة همجية» وهو يضع مركز خازاريا في سهوب الكالميك ويشير بصورة صحيحة تماماً إلى أنه لا يوجد هناك «بقايا أثرية لمدن خزرية» وفي الحقيقة هم ليسوا هناك. والأهم هو أن ارتياب ب. أ. ريباكوف يعتمد على تلك المصادر نفسها التي تحمس لها

ف. ف. غريغورييف. وهذا قطعاً لا يشهد على عدم مهارة العلماء في الاستفادة من أخبار المؤلفين القدامى، ولكن لا يجوز عدم الاعتراف أنه طالما أن الاستنتاجات يمكن أن تكون مختلفة بهذا المقدار فإن ذلك يعني أن المصادر الموجودة غير كافية.

ولا يمكن التسليم مع ب. أ. ريباكوف لأنه حتى قبل أن تسير التجارة بطريق الفولغا كان عند الخزر قوات قوية وقطعاً ليست مرتزقة أنقذت الإمبراطور هرقل من الهزيمة في سنة ٦٢٧-٦٢٨م. واستطاعت فقط الأوساط الحاكمة أن تزدهر «طفيلياً» وما عداها كان الشعب الذي عاش على حساب اقتصاده الذاتي واستمر بالوجود بعد عام ٩٦٥م وهذا يعني بعد القضاء على الخاقانية. وأخيراً أن غياب الشواهد الأثرية في السهوب يقول فقط بأنه يجب البحث عنها في مكان آخر.

وخلافاً لـ ف. ف. غريغورييف وب. أ. ريباكوف اعتبر م. إ. ارتامونوف أن تاريخ الخزر هو تكون سريع التطور (ديناميكي). فهو يشير بدقة إلى المرحلة «المدينية» عندما اغتنت الأوساط الحاكمة الغريبة عن الشعب بالدم والدين على حساب التجارة مستندة إلى الحرس - التركمان المرتزقة ويثبت بطريقة مماثلة أن الحياة الموصوفة في «الرسائل الخزرية - اليهودية» كانت مرتبطة بعادات القبيلة الخانية التي تنتسب إلى سلالة آشين الملكية التركية التي لم تتخلَّ عن تقاليدها. وهذا المؤلف يترك جميع الأسئلة الغامضة التي سردناها عن الشعب الخزري مفتوحة لأن المواد الموجودة تحت تصرفه لم تعطه أساساً أحكاماً قطعية. ولذلك يشير م. إ. ارتامونوف «لم يحدد حتى الآن بالضبط موقع مدن خازاريا الرئيسة - إيتيل وسيمندير وغير معروفة آثارهما المادية ولم يكتشف ليس فقط قبور خاقانات الخزر وإنما غير معروفة المدافن الخزرية على العموم».

وبعبارة أخرى لم تكتشف حتى الآن الأرض التي عاش عليها الشعب الخزري بالرغم من أن حدود الخاقانية الخزرية كانت معروفة بدقة إلى حدٍ ما.

وبهذه النظريات الثلاث استنفدت حالات حل المسألة الخزرية في حقيقة الأمر. وبغض النظر عن المؤلفات الموسعة عن المسألة فإن جميع الآراء الأخرى يمكن أن تكون بيانات لإحدى النظريات الثلاث المشروحة وإما تقع في الفواصل فيما بينها. والقسم الأكبر من المؤلفات مكرس للمسائل الخاصة بالعلاقات البيزنطية - الخزرية والخزرية - الروسية والخزرية - العربية أو لتدقيق التفاصيل المؤرخة تقويمياً (المرتبة زمنياً) وليس لها أيّ معانٍ أو استنتاجات عامة.

ولذلك لم نقم بتحليل تلك الأعمال مرجعين القارئ إلى كتاب م. إ. ارتامونوف. وكيف يتعمق بهذا القارئ - غير المتخصص لو فجأة أراد أن يتعرف

لا على المناقشات العلمية الكبيرة المستمرة وإنما على الخزر أنفسهم؟ حتى لو كان في الكتب والمقالات ومن بين العديد من وجهات النظر هناك واحدة صحيحة. فالقارئ غير المطلع لا يستطيع تمييزها من وجهات النظر الأخرى الخاطئة. والطريقة الوحيدة لمساعدته هي كما قاد فرجيل دانتي في كل مجاهل الظن والشك والخيبة التي تجبر العالم على أن ينطلق في طرق البحث المدروسة والنجاحات الملهمة والدافعة إلى الأمام معطياً القارئ بهذا الشكل إمكانية تكوين رأيه الخاص.

وهكذا أنشئ هذا الكتاب فهو - سيرة حياة اكتشاف علمي. ولذلك أعطي فيه لوصف الموضوع مكاناً مساوياً لطريقة البحث واللقى الأثرية واللقاءات مع اللجان والدارسة الدقيقة للتاريخ والأفكار التي ظهرت للوهلة الأولى بالمصادفة «ولكنها قدمت بيانات مثمرة عن الطرق والانطباعات عن جمال الطبيعة».

وكل هذا يمتزج ويصب في عملية تركيب تاريخي وحيدة. ولا يمكن القول أبداً إن ما قدم هو الأكثر أهمية لمعرفة الحقيقة وإدراكها: سواء أكان من دراسة المصادر باللغة الأصلية أو بالتراجم. أو مطالعة الأعمال التاريخية للعلماء المعاصرين أو وصف القِطع والكسرات والخرز في الأطلال القديمة إن كان تحت شمس الجنوب الحارقة أو في غرفة هادئة أو يمكن أن يكون ذلك مناقشة مع عالم اختصاصي في مجال آخر شارك في معلوماته أو تداعياته الخاصة التي ولدت من التفكير الطويل - على انفراد.

أجل لا تتذمر أيها القارئ لأنه في هذا الكتاب سيحكى ليس فقط عن الخزر وبلادهم وإنما عن الطرق والكتب التي قرئت وعن رفاقي وجلساتي أيضاً وعن المناقشات وقراراتها وحتى عني بالذات.